موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٣٥)

الصداقة

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

٣٥

الصداقة

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

دار رواح

www.mtenback.com
موقع المكتبة من تنباك
www.mtenback.com

ⓒ مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٢٢٠-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٣٥)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٢٢٠-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٣٥)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
الصداقة لغةً	١١
الصداقة اصطلاحًا	١١
معنى الصداقة	١٢
مرادفات الصداقة ودلالاتها	١٨
عناصر الصداقة ومقومات الصديق	٤٢
الصداقة في أدبيات الأمم الأخرى وانعكاسها على الفكر العربي	٤٥
اختيار الأصدقاء	٥٣
الصداقة والمال	٥٨
الصداقة والسلطة	٦٣
الصداقة والعقل	٦٥
الصداقة والعزلة	٦٨
الصداقة والكتاب	٧١
الصداقة والملل والهجر	٧٣
تبدل الصديق	٧٥
عتاب الصديق	٧٨
التسامح مع الصديق	٨٢
الصديق بين الوفاء والغدر	٨٣
الصديق والقريب	٨٧
الفهارس	٩١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقَتْ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

توطئة:

منذ القدم والناس يكررون تلك المقولة الخالدة «الإنسان اجتماعي بالطبع». والحقيقة أن الإنسان مفطور بغريزته وطبعه على الاجتماع، وعلى تكوين الكُتَل الاجتماعيّة، ممثلة بالأسرة والعشيرة والقبيلة وأمثالها.

«والبحث في العلاقات الإنسانية الاجتماعية بحث متسع الجوانب، رحيب المجال، متعدد المشارب تمتد أمامه دائرة الحديث، وتتسع حياة الناس في رحابه، فتختلف مثل اختلاف طبائعهم وتتلون كتلون ظروفهم، وتتغير مثل تغير الطقس. ومن أشهر علاقات الناس وروابطهم الاجتماعية الصداقة التي هي محور العلاقات الإنسانية ومركز الدائرة في كل ما يتعلق بالتعامل الإنساني المقبول وهي نقطة الانطلاق السريع إلى القلوب، والنموذج الأفضل لكل تعامل يحترمه الآخرون، ويحافظون عليه»[1].

والصداقة علاقة نبيلة كريمة تقوم بين إنسان وإنسان، وهي علاقة لا تتجاوز القيم والتقاليد النبيلة الشريفة المتعارف عليها، كما أن الصداقة تتعدى الفرد الواحد أو الاثنين فتقوم بين جماعات أو عشائر أو قبائل أو دول. وفي كل أشكال هذه التجمعات يظل الود والمحبة وتبادل المنافع وربما التضحية هي سدى هذه الصداقة ولحمتها، ويظل الرابط الذي يربط تجمّعين بشريين أو أكثر هو الصدق الذي اشتقت منه الصداقة، فإذا انعدم الصدق تلاشت الصداقة، وربما تحولت إلى النقيض، وهو العداوة، أو في أبسط الحالات إلى الكراهية والبغض. وتبدأ الصداقة مقدمة لارتباطات اجتماعية أعمق منها، فإذا تعمقت بين رجلين أو أكثر انتهت إلى الشراكة وإقامة مشاريع اقتصادية واجتماعية. وإذا تعمقت بين مجتمعين أو دولتين انتهت إلى صور من السلام والأمن وتبادل المصالح المشتركة في ظل من التآخي والتلاحم.

---

[1] ابن تنباك، مرزوق بن صنيتان: حقوق الأصدقاء في نظر الشعراء. مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد مايو ١٩٩٣م، ذي القعدة ١٤١٣هـ.

www.mtenback.com

وليست الصداقة صورة من صور مكارم الأخلاق فحسب، بل هي أسٌّ لمجموعة كبيرة منها، كالوفاء والإحسان إلى الناس والعفة والكرم وحسن الجوار والرحمة والشفقة والإيثار والمروءة واجتناب سوء الظن، وظهور البشاشة وحب الخير للناس ورعاية الذمم والحقوق، وإجابة الدعوة وتفريج الكربات والعفو وغيرها.

فالصداقة عاطفة نبيلة بين شخصين، ولون هادئ من ألوان الحب، لونٌ يُعَد مزيجًا من العقل والحكمة والعاطفة. تبدأ شعوراً ضئيلاً ثم تتنامى مع مرور الزمان.

والصداقة في عالم السياسة طريق إلى السلام والوئام بين الشعوب والأمم، إذ لم تكن الحروب والصراعات بينها إلا نتيجة لانعدام الصداقات أو لضعفها، وكثيراً ما تحل الصداقات القائمة بين المسؤولين في أمتين، فتنتقل صداقاتهم إلى صداقات دولهم.

والصداقة من وجهة نظر أخرى هي ملء الفائض من الفراغ لدى الإنسان مع إنسان آخر يرتاح إليه ويستطيب حديثه وتصرفاته.

ونظراً لقيمة ظاهرة الصداقة وشيوعها بين البشر فقد ألّف فيها مفكرو الأمم كتباً متميّزة، سواء عند العرب أو عند غيرهم، وسواء في القديم أم في الحديث، ومن أشهر نتاج الحضارة العربية الإسلامية ما ألّفه أبوحيان التوحيدي، وهو كتاب «الصداقة والصديق»، فجمع فيه نخبة طيبة من الشعر والنثر اللذين يدوران حول الصداقة، أكثره للعرب وأقله من نتاج أفكار الأمم المعروفة بالحكمة كاليونان والفرس والهند وغيرها، وأبو حيان الذي جاب الممالك وتغرب في الأنحاء، كان فيه توق للصديق، ورغبة لإقامة العلاقات الطيبة الصادقة، ولكنّ القدر وضع أمامه شريحة أمشاجًا من الأصدقاء، فلهذا وجد المادة الأولية لموضوع الصداقة، فألّف منها كتابه.

وأضاف أبو حيان من معاني تجربته، و لم يكتف بهذا بل تناول موضوع الصداقة والصديق في كتاب آخر، بصورة موجزة، فجعل المقابسة الأخيرة من كتابه «المقابسات» لهذا الموضوع، جعل عنوانه: «في الصديق وحقيقة الصداقة وفلسفة العشق والحب».

www.mtenback.com

والذي سهل على أبي حيان الدخول إلى هذا الموضوع الكبير، وأمده بمادة غير قليلة من الشعر والنثر، أن ثلة من المؤلفين قد سبقوه إلى ذلك، منهم ابن المقفع الذي خصص المقالة الثانية من كتابه، الأدب الكبير لموضوع الصداقة، ولا يغيب أن كتاب كليلة ودمنة عالج موضوع الصداقة في بعض قصصه.

وكذلك صنع ابن قتيبة في كتابه، عيون الأخبار، في فصل سماه: كتاب الإخوان، فيه فصول فرعية عن التلاقي والزيارة والوداع، والعيادة، والتهاني والقرابات، والهدايا، والتعازي، والاعتذار، وغير ذلك من الأمور التي تدخل في باب الصداقة.

أما في الأندلس فقد خصص ابن حزم للصداقة باباً في رسالته التي عنوانها: في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق، والزهد في الرذائل، جعل عنوانه: «فصل في الإخوان والصداقة والنصيحة».

وفي القرن الخامس الهجري يؤلف ابن مسكويه كتابه: «تهذيب الأخلاق» ويجعل المقالة الخامسة من هذا الكتاب لموضوع الصداقة. ويجعل عنوانها: «في الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض وأنواع المحبة». وكثر تناول العلماء في ذلك القرن لموضوع الصداقة، فأورد الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين» نثرات وآراء عن الصداقة.

ثم جاء الغزالي في كتابه المشهور «إحياء علوم الدين» بفصلٍ جيد عن الصداقة بعنوان: «آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق».

ولا نتجاوز القرن الخامس حتى نلتقي بأبي عبدالرحمن السُلَمي الذي ألّف كتاباً جعل عنوانه: «آداب الصحبة»، وهكذا يشتغل العلماء والحكماء بهذا الموضوع في كل عصر، حتى إذا دلفنا إلى القرن العاشر، وجدنا أبا البركات بدر الدين محمد الغزي يفصّل في هذا الموضوع في كتاب يسميه «آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة».

www.mtenback.com

هذا في الجانب الإيجابي من الصداقة، ولكنْ هناك نوع من السلبية في التأليف عن الصداقة، كالذي نجده عند الوزير جمال الدين بن علي بن ظافر الأسدي الذي اضطرته الأيام لأن يؤلف كتابًا في تنكر الأصدقاء، بما يوجب ذمهم، سماه «شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل». ويبدو أن الإمام السيوطي مرّ بمثل هذه التجربة المريرة فاعتكف على الكتاب السابق ولخصه وأضفى عليه شيئًا من تجربته، وسماه: «الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب».

هذا كله في ثقافتنا القديمة، وأما في العصر الحديث فثمة كتب تناولت هذه الظاهرة.

فمن الكتب الجيدة التي تناولت الصداقة كتاب، الحب والصداقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة، تأليف يوسف الشاروني، ومن الكتب الحسنة كتاب الدكتور عزالدين فراج، سماه: فن الصداقة. كما ألف الدكتور زكريا إبراهيم كتابًا سماه: مشكلة الحب خص الفصل التاسع منه بمشكلة الصداقة أي «فيليا» كما يسميها اليونان، وقد قارن بين مفهومي الحب والصداقة، وكتب أفكارًا ممتازة في فلسفة الصداقة جديرة بالقراءة.

وتناول ظاهرة الصداقة عند المراهقين د. مصطفى سويف في كتابه الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، وهي دراسة تتميز بالمنهج التجريبي في مقابل تلك الدراسات النظرية التأملية.

ويمكننا أن نلحق كتابًا سماه صاحبه أحمد الكويت: الصداقة والصديق، بالمؤلفات العربية. ولعله جمعه من كتابين، هما الصداقة والصديق للتوحيدي، وتهذيب لكتاب الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب للسيوطي. وكتابه أبواب متخيرة من هذين الكتابين لأشعار وأقوال نثرية، وفيه القليل من إنشائه ورأيه في الأصدقاء.

www.mtenback.com

أما عند الغربيين، فقد ألّف «دايـــل كـــارنيجي» كتابـــه: كيـــف تكســـب الأصدقـــاء، وتؤثر في الناس» كما ألف «وليم مننجر» كتابًـــا بعنـــوان «الصداقـــة والاحتفاظ بالأصدقاء».

ولأندريه موروا دراسة عن الصداقة في كتابه «فن الحياة» تعرض فيه لموضـــوع الصداقة بين النساء، وأثر زواجهن على مثل هذه الصداقات، وما زعمه من إمكان قيام صداقة بين رجل وامرأة مع تواري الحافز الجنسي، وهي موضوعات لم يتعـــرض لهـــا الفكر العربي ولا اليوناني قبله. ومرد ذلك إلى أن طبيعة الحياة في الحضـــارة الغربيـــة المعاصرة تثير مثل هذه الموضوعات.

اقتصر كثير من المؤلفات العربية والأجنبية على مفهوم الصداقة، ولكن ذلك لا يمنع من أن يقع المتصفح لكتب التراث وغيرها على فصول وفقـــرات تتحـــدث عـــن الصداقة، وأكثر منها على أشعار وأمثال وأقوال فيها، لأن هذه الظاهرة الإنسانية قـــلّ من لامسها بعمق أو بسطحية، ولعل ما أُلّف فيها قليل لا يوازي مكانة هذه الظاهرة، و لم يُحِط بكل جوانبها من جهة أخرى.

إن الصداقة في المجتمعات البدائية، وفي أوساط الناس الفطريين آكد وأسمى منهـــا في المجتمعات المتحضرة، وهي أعمق منها في أوساط الناس الذين انغمســـوا في الحيـــاة المدنية، وربما يعود السبب في ذلك إلى صفاء نفوس أفراد المجتمعات البدائية، وابتعـــادهم عن التكالب المادي الذي تفرضه الحياة المدنية وما تستلزمه من متطلبات تجعل النـــاس يستهينون بالقيم الروحية ويتشبثون بالقيم المادية، ولذلك تتلاشى الروحانيات في زحمة التنافس المادي واللهاث الشديد وراء المكاسب التي تتكاثر وتتسارع لتلحـــق العصـــر ومتطلباته. ومن هنا جاءت فكرة التفاوت بين المجتمعات.

والصداقة مجرد مؤاخاة بالمودة، أو مجرد أُلفة تحدث بخلوص المصافـــاة والتـــآلف والتجانس، وهي علاقة شخصية، تقوم على التبادل بين الأنا والأنت.

www.mtenback.com

والصديق ذلك الشخص الذي يريد الخير ويعمله. والصديق هو الذي يريد لصاحبه أن يوجد ويحيا لذاته، وهو الذي يحيا بتواصلٍ مع شخص آخر، ويختار الموضوعات نفسها التي يختارها، وهو الرجل الذي يتعاطف مع صاحبه، فيشاركه آلامه وأفراحه. والصداقة الحقيقية هي التي تقوم بين شخصين متساويين، تجمع بينهما وحدة الغرض، ويشعر كل منهما بمسؤولية أمام الآخر. ولا شك أن هذه الصيغة «التبادلية» هي التي تنأى بالصداقة عن كل رغبة في التملك، أو نزوع نحو السيطرة، فالصديق يعرف جيداً أن صديقه لا يمكن أن يكون «موضوعًا» يقتنيه، أو «شيئًا» يمتلكه، بل هو إنسان حرٌّ يستطيع أن يرفض ويمتنع، وهو يستطيع بالمقابل أن يتقبّل ويستجيب. والصديق هو الشخص الذي يرتبط بآخر بوشائج الحب وروابط التقدير والاحترام، «ولا شك أن موضوع الصداقة هو موضوع الإنسان نفسه، حياته وسلوكه وعلاقاته وكينونته، والحديث عنها حديث قديم قدم الإنسان على الأرض وهو مستمر دائم باقٍ مابقيت الحياة. وقد ملئت الصحائف عنها ودُوِّنت الكتب ورويت الأشعار والحكم في معنى الصداقة وعلاقة الإنسان بالإنسان، وارتبطت هذه العلاقة بأساسين متناقضين هامين هما الصداقة والعداوة. وكل إنسان تربطه بإنسان آخر صلة ما فلابد أن تتحول إلى «إحدى هاتين الخصلتين: إما العداوة وإما الصداقة»[٢].

ولما كانت الصداقة ظاهرة طبيعية بين البشر، قديمًا وحديثًا، شرقًا وغربًا، وواحدة من أبرز القيم الإنسانية، فقد كثر الحديث عنها، وأكثر الناس حديثًا عنها الشعراء والحكماء - وما أكثرهم في الأمة العربية - ومن هناء جاءت أكثر الأشعار والأقوال في الصداقة والصديق أدخل في باب الحكمة وأسير على ألسنة الناس، وأرسخ في أذهانهم، ومع ذلك جاءت المؤلفات في الصداقة، في التراث العربي، في الماضي والحاضر، قليلة، على الرغم من كثرة ما قيل فيها من الشعر والنثر.

[٢] ابن تنباك، مرزوق بن صنيتان: حقوق الأصدقاء في نظر الشعراء.

www.mtenback.com

الصداقة لغة:

تنقل معجمات اللغة عن بعضها وترجع الكلمة إلى أن الصداقة والصديق مشتقة من أصلين: الأول: الصِّدْقُ وهو ضد الكَذِب، أو الصّدق الذي هو بمعنى الشدّة، وتقول: الصديق كأمير: الحبيب، وتطلق هذه اللفظة على الواحد، والجمع، والمؤنث، وحتى على جمع المؤنث، ولكن يقال: صديقة وصديقات، وفي جمع المذكر يقال: أصدقاء وصُدَقاء وصُدْقان وأصادق.

الصداقة اصطلاحًا:

والصداقة في المصطلح: الإخاء، وصدق المودة والنصيحة، والصداقة محض المحبة، وصدق الاعتقاد في المودة. وذلك مختص بالإنسان دون غيره. ولكن بعض كتب علم الحيوان تشير إلى أن ثمة صداقة تقوم بين بعض الحيوانات، ولكنها صداقة سطحية قوامها الدوافع الغريزية.

ويبدو أن الصداقة فيها قسط غير قليل من العمل العقلي، وهذا عنصر غير متيسر في فصائل الحيوان.

وللصداقة والصديق مرادفات كثيرة، بعضها مستعمل مشهور. كالخليل والصاحب والرفيق والأليف والعشير والأخ والخليط والحميم والجليس والقرين والصفيّ والخدين والنديم والسمير والأنيس والوليّ والحبيب، وبعضها مهجور مغمور، ظل محبوسًا في كتب اللغة لغرابته.

وقد تبدو هذه الألفاظ مرادفة للصديق ولكنها ليست مرادفة تمامًا، فثمة معانٍ دقيقة تحدثت عنها كتب الفروق، كالفرق بين المحبة والصداقة، فالمحبة شدة شهوة الشيء وقوة إرادته، أما الصداقة فهي قوة المودة مأخوذة من الشيء الصَّدق وهو الصلب القوي، وقالوا: الصداقة اتفاق القلوب على المودة [٣]. وسيرد بسط الحديث عن

---

[٣] أبو هلال: كتاب الفروق، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ص١١٥.

www.mtenback.com

الفروق بين هذه المترادفات. ولا مانع من ذكر بعضها هنا؛ فالخدين: الصديق في السر، ومن يخادنك في كل أمر ظاهر وباطن؛ وحواريُّ الرجل: خُلصانه وخاصته من أصحابه، والخلة: الصداقة المختصة لا خلل فيها، وقد تكون في عفاف وفي غيره، أو هو من أصفى المودة وأصَحِّها؛ والودود: الكثير الحب؛ والأخوة: الصداقة والصحبة، وهو أخ وهي أخت وهم إخوان، وتآخيا: اصطحبا كالأخوين؛ والصفي: الصديق المختار والحبيب المصافى، وهم أصفياء وهي صفية؛ وناموس الرجل صديقه وصاحب سره. والتماسح: التصادق؛ والعشير: الصديق المخالط.

معنى الصداقة:

لم ترد لفظة «الصداقة» في القرآن الكريم، وإن كانت لفظة «الصديق» المشتقة منها وردت مرتين، مرة في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٤]، وأخرى في قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[٥]. و لكن هذا لا يعني أن القرآن الذي هو جَماع مكارم الأخلاق يخلو من توجيه المسلمين إلى الصداقة والألفة، ومن هنا جاءت مفهومات الصداقة بألفاظ أخرى مرادفة للصديق كالخليل والصاحب والولي وغيرها.

وجاءت آيات كثيرة تشير إلى الألفة وتحض عليها وتجعلها من نعم الله على عباده المسلمين، ففي آل عمران قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٦] وامتنّ الله على عباده بأن تغيير ما انطوت عليه

---

[٤] سورة الشعراء: ١٠٠-١٠١ .

[٥] سورة النور: الآية ٦١ .

[٦] سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

www.mtenback.com

قلوب الناس، من العداوة إلى الصداقة، ليس أمرًا يسيرًا، ولا يقدر عليه إلاّ هو سبحانه، فقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[٧] والألفة عندما تكون بريئة وخالصة من المصالح والمنافع فإنها تقدر على أداء دور عظيم في العلاقات الاجتماعية و لم يكن الدين ليغفل عن هذه النزعة المادية في تألّف القلوب؛ فلهذا جاء في سورة التوبة قوله تعالى:﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[٨].

وجاءت لفظة الخليل بصيغة الجمع، في قوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[٩]. وهؤلاء الأصدقاء، على الرغم من شدة المودة بينهم، لا يلبثون أن يتحولوا إلى أعداء عندما تأتيهم الساعة بغتةً، فلا تترك لهم المفاجأة فرصة لاستمرار الصداقة والتمتع بالمنادمة. على أنه لا ينبغي أن نُغفل الجانب السلبي لبعض الأخلاء، وتأثيره فيمن يخالل، إذ من المعلوم أن «كل قرين بالمقارن يقتدي» وأن اختيار الخليل ليس بالأمر الهيّن، وربما كان بعض الأخلاء ممن لا يُرتضى سلوكه، أو عشرته، فتقود صحبته إلى ما يشين الخلق، أو ما يسيء إلى المروءة والدين، فمثل هذا هو الذي يتبرأ منه خليله يوم القيامة، قال تعالى في شأن بعض هذا الصنف من الأخلاء: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾[١٠].

---

[٧] سورة الأنفال: الآية ٦٣.

[٨] سورة التوبة: الآية ٦٠.

[٩] سورة الزخرف: الآية ٦٧.

[١٠] سورة الفرقان: الآية ٢٨-٢٩.

www.mtenback.com

ووردت في القرآن أيضًا لفظة (قرين) مفردة وجمعًا، وتعني الصديق المقارِن. ولكنها لم تستعمل إلا بمعنى قرين السوء وخاصة الشيطان، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[11] وتكرر ورود القرين ست مرات، ثم وردت جمعًا بالمعنى نفسه وهو الشيطان الذي يزين للمرء سوء عمله، قال عزّ وجل: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[12].

أما ألفاظ الصاحب والصاحبة، والولي والمولى فتكررت كثيرًا في القرآن؛ بعضها بمعنى الصديق، وبعضها اكتسب دلالة أخرى تُفهم من سياق الآيات التي وردت فيها.

في سيرة الرسول ﷺ شواهد كثيرة على أنه كان يحب إقامة علاقات طيبة وصادقة مع معارفه، وقد كانت هذه الخاصّة لديه منذ صغر سنه ونمت في الكبر، ولا أدلّ على ذلك من علاقته الطيبة بالسيدة خديجة، وهي علاقة كريمة بدأت في فترة مبكرة من حياته، حين عمل في تجارتها فكانت هذه العلاقة سببًا بالزواج منها. أما علاقاته برجال عصره فكانت أكثر من صداقة عادية بين الرجال، وانتهت إلى أن أصبح هؤلاء الرجال أصحابًا له، ضحوا بأنفسهم في سبيله، وما كان هذا ليحدث لولا (الصداقة) المتينة والحميمة التي كانت تربطهم، صداقة محورها محبة الله، ومحبة الرجل الذي يحمل هذه المحبة، وعمادها الصفات التي يتمتع بها الرجل الذي بشّر بهذا الدين، والخصائص التي وصفه الله بها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[13] فمن تمتع بمثل هذا الخلق العظيم لا شك سيخلب أفئدة الرجال، وينجذب إليه كل من عرف فيه المزايا الحميدة، والفضائل الكريمة، ولذلك أَلِفَ الناس وألفوه، وكثر في أحاديثه الدعوة إلى

---

[11] سورة الزخرف: الآية ٣٦.

[12] سورة فصلت: الآية ٢٥.

[13] سورة القلم: ٤.

www.mtenback.com

التآلف والأخوة والصداقة والتعارف بين الناس، أليس هو القائل: «الأرواح جنودٌ مجندةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[١٤].

وكان الرسول ﷺ يحض على المحبة الخالصة المتمثلة بمحبة المتحابين في الله. لذا قال: «ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًا لصاحبه»[١٥].

وثمة صور جميلة شائقةٌ أخرى، ففي الحديث: «المتحابون بجلال الله في ظل عرش الله»[١٦]، وحض الرسول المؤمنين على التحاب فيما بينهم، وإقامة الصداقة فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١٧]، فلذا تراه يربط الإيمان بمحبة الآخرين. وهي نظرة عميقة لإشاعة التحاب في المجتمع المتجانس المؤمن. وقال: «المرء كثير بأخيه»[١٨]، وشدَّد على ترابط هذه الأخوة بإعطائها حقها من صور المجاملة الضرورية فقال: من عاد مريضًا أو زار أخًا في الله ناداه مناد من السماء طِبتَ وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً[١٩]، وكان فعله ﷺ قدوةً في بثِّ المودة والوفاء ففي الحديث: قالت عائشة: «كنتُ أرى امرأة تدخل على النبي ﷺ وكان يقبل عليها بحفاوة بر، فشق ذلك عليَّ، فعلم ذلك مني، فقال: يا عائشة، هذه كانت تغشانا أيام خديجة، وإنَّ حُسن العهد من الإيمان»[٢٠]. وأكد ذلك في حديث آخر قال

---

(١٤) البخاري: في الصحيح، تقديم وتحقيق وتعليق: محمود النواوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد خفاجي، نشر مكتبة النهضة الحديثة، مطبعة الفجالة القاهرة، (١٣٧٦هـ)، ٣٦٩/٦، ٣٣٣/٦. الخولي، محمد عبد العزيز: الأدب النبوي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٤، (١٣٧٥/١٩٥٥م)، ص١٠٨.

(١٥) الباني، محمد بشير: البناء الأخلاقي، مطبعة العلم دمشق، ١٩٦٥م، ص٢٠٨.

(١٦) ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد: الإخوان، تحقيق: محمد عبد الرحمن طوالبة، دار الاعتصام، القاهرة (١٩٨٢م)، ص٣.

(١٧) صحيح البخاري، ج١، ص٩.

(١٨) الإخوان، ص٢٤.

(١٩) الإخوان، ص٩٧.

(٢٠) الحاكم النيسابوري: المستدرك، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج١، ص ١٥.

www.mtenback.com

فيه: إن الله يحب حفظ الود القديم[٢١]. وورد في الحديث: «إنَّ من أبرِّ البرِّ صلةُ الرجلِ أهْلَ ودِّ أبيه»[٢٢]، فأي تواد هذا إذا ما قورن بتعايش الناس الذين انقطعت بينهم صلة الأرحام، ومودات ذوي القربى، حتى إن الجار ليمكث عشرات السنين وهو لا يعرفه جاره ، ومن هنا جاء تفكك بعض المجتمعات، سواء في العلاقات بين الأفراد أو في العلاقات بين الدول، ولا يحرك هؤلاء الناس إلا المصالح الاقتصادية والمنافع المادية، أما القيم الروحية فتكاد تكون معدومة.

فإذا كان الدين صلةً بين العبد وربه، فإن التودد إلى الناس صلةٌ بين العبد والمجتمع. فإذا أخذ المؤمنون بهذا التوجيه صاروا كما وصف الرسول عندما قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا إشتكى منه عضوٌ تداعى سائره بالحمى والسهر»[٢٣]، أو كما قال في حديث آخر: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا»[٢٤].

وقد بدأ الرسول ﷺ بالفرد فأراد أن يغرس فيه الفضائل الأخلاقية، لأنه يمثل اللبنة الأولى في المجتمع الكبير، فقال: «المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يَألف ولا يؤلف»[٢٥] ثم وسع الدائرة من الفرد إلى الأهل فقال: «خيركم خيركم لأهله»[٢٦].

---

[٢١] الغزي: محمد، آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة، علق عليه مشهور حسن محمود سليمان، دار ابن حزم، بيروت، ط١، (١٩٩٠م).

[٢٢] مسلم في صحيحه، موسوعة الكتب الستة، دار السلام، ط١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، كتاب البر والصلة، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، ص١١٢٥-١٢٢٦، رقم الحديث: ١٣.

[٢٣] الطبراني: الجامع الصغير، ٢/٢١/٧٠٥.

[٢٤] البخاري: في الصحيح ١/٥٦٥/٤٨١

[٢٥] مسند أحمد: شرحه: أحمد محمد شاكر، المعرف بمصر، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ٥/٣٣٥.

[٢٦] الترمذي: في الجامع، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د.ت)، ٥/٧٠٩/٣٨٩٥.

www.mtenback.com

وتجاوز الأهل إلى الجار، لأن الجار وإن كانت لا تربطه رابطة القرابة فإنما تربطه رابطة صداقة البيت للبيت، ومودة المسكن للمسكن، ولذلك قال: «ليس بمؤمن مَن شبع وجاره إلى جنبه طاوٍ»[٢٧]. و «لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جارُه بوائقه»[٢٨].

وقدَ لحظ الرسول ﷺ تأثير الصديق على صديقه في دينه إذا كان ديِّنا، وفي أخلاقه إذا كان خلوقًا، لذا وجَّه إلى اختيار الصديق الصالح فقال: المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل[٢٩]. وما أحوج الشباب والمراهقين في زمننا هذا إلى استيعاب هذه النظرة التربوية الثاقبة.

وتجاوزت توجيهات الرسول ﷺ النظرات التربوية إلى نظرات أقرب إلى علم النفس منها إلى التوجيهات التربوية فقال: أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما[٣٠]. فالعاقل من الناس من يحب بقدر ويبغض بقدر. وتجارب الإنسان في حياته علمته أن رب صديق انقلب عدوًا لاختلاف وجهات النظر، أو لتضارب المصالح المادية، أو لرب عدوٍ عاديته اليوم فتحول مع مرور الزمان إلى صديق، وقد علمتنا التجارب أنه لكي نستديم الصداقة علينا ألا نكون عبئًا على أصدقائنا، أو أن يكون ظِلنا ثقيلاً عليهم، فلهذا علمنا أدب الزيارة فقال: زر غِبًا تزدد حُبًّا[٣١].

ولو حاولنا أن نحصي ما ورد من المعاني عن الصداقة والألفة والأخوة وما تفرع عنها لاجتمع منها شيءٌ كثير، فمن مظاهرها التزاور بين الأصدقاء، وعيادة المرضى

---

[٢٧] البخاري: إسماعيل بن إبراهيم: الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، (١٣٧٥هـ)، ج٢٥.

[٢٨] البخاري: ٣٧١/١٠ .

[٢٩] مسند أحمد: الحديث رقم ٨٠٦٥.

[٣٠] الدار قطني، علي بن عمر: دار طيبة (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

[٣١] أبوحيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٤٤/١٤٣.

www.mtenback.com

منهم، وإطعام الطعام لمحتاجه، والبذل وتقديم المال لهم عند الحاجة، وكسوتهم إن لزم الأمر ذلك. وغيرها من مكارم الأخلاق التي يتصف بها النبي ويحض عليها.

مرادفات الصداقة ودلالاتها:

الأخ:

ليس المقصود هنا الأخ ابنُ الأم والأب بل الأخ بمعنى الصديق الحميم والأليف الودود، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٣٢].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٣٣].

وكذلك قول عبدالله الجعفري[٣٤]:

وَرُبَّ أَخٍ لَيْسَتْ بِأُمِّكَ أُمُّهُ ... مَتَى تَدْعُهُ لِلرَّوْعِ يَأْتِكَ أَبْلَجَا

يُواسِيكَ فِي الجُلَّى وَيَحْبُوكَ بِالنَّدَى ... وَيَفْتَحُ ماكان القَضا عَنْكَ أَرْتَجَا

وكثير من المؤلفات استخدمت لفظة (الإخوان) في الأبواب التي تحدثت عن الصداقة، ومن هؤلاء صاحب كتاب: عيون الأخبار، إذ عقد باباً عنوانه «كتاب الإخوان» بدأه بقوله: «أعجز الناس من فرّط في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»[٣٥].

وقال الشاعر[٣٦]:

أَخَاكَ أَخَاكَ، إِنَّ مَنْ لا أَخَا لَهُ ... كَساعٍ إِلَى الهَيْجا بِغَيْرِ سِلاحِ

---

[٣٢] سورة آل عمران: الآية ١٠٣

[٣٣] سورة الحجرات: الآية ١٠.

[٣٤] ابن قتيبة: عيون الأخبار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، (١٩٦٣م)، ج٣، ص١.

[٣٥] ابن قتيبة: عيون الأخبار، المجلد الثالث، ج١ ويشمل كتاب (الإخوان) ١١٧ صفحة من المجلد الثالث.

[٣٦] ابن قتيبة: عيون الأخبار، المجلد الثالث، ص٢.

www.mtenback.com

وَإِنَّ ابْنَ عَمِّ الْمَرْءِ فَـــاعْلَمْ جَنَاحُـــهُ وَهَلْ يَنْهَضُ البازِي بِغَـــيْرِ جَنَـــاحِ؟!

وقد يفسر (الأخ) في البيت الأول بمعنى الشقيق. وقال المأمون: «الإخوان ثلاث طبقات، طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليـــه إلا أحيانًـــا، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدًا»[٣٧].

وتحدث أصحاب التجربة عن الأخ المثالي الذي يتمتع بمزايا تجعله محبوبًا لـــدى أصدقائه وإخوانه. ومنها تسامحه وترفعه عن سفاسف الأمور، والتوافق الروحي مع مـــن يصادقه وحفظه أسراره حيًا وميتًا، وهـــذا الصنف من الناس قليل. ولقد لخص هـــذه المعاني الإمام الشافعي عندما قال[٣٨]:

أُحِبُّ مِنَ الإِخْـــوانِ كُـــلَّ مُوَاتِـــي وَكُلَّ غَضِيضِ الطَّرْفِ عَنْ عَـــثَراتِي

يُوَافِقُنِي فِـــي كُـــلِّ أَمْـــرٍ أُرِيْـــدُهُ وَيَحْفَظُنِـــي حَيًّـــا وَبَعْـــدَ مَمَـــاتِي

فَمَنْ لِي بِهَذا ؟! لَيْتَ أَنِّـــي أَصَبْتُـــهُ لَقَاسَـــمْتُهُ مَـــالِي مِـــنَ الحَسَـــنات

تَصَفَّحْتُ إِخْوَانِـــي، فَكَـــانَ أَقَلُّهُـــمْ – عَلَى كَثْرَةِ الإِخْوانِ – أَهْلَ ثِقَـــاتِي

وللإمام الشافعي أبيات كثيرة في الإخوان والأصدقاء، ومذهبه التكثر من إخوان الصدق. فكثيرًا ما أنشد[٣٩]:

وَأَكْثِرْ مِنَ الإِخْوانِ ما اسْطَعْتَ، إِنَّهُمْ بُطُـــونٌ إِذَا اسْـــتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُـــورُ

وَلَيْسَ كَثِـــيرًا أَلْـــفُ خِـــلٍّ لِوَاحِـــدٍ وَإِنَّ عَـــدُوًّا وَاحِـــدًا لَكَثِـــيرُ

---

(٣٧) ابن قتيبة: عيون الأخبار، المجلد الثالث ص ٣.

(٣٨) الإمام الشافعي: شعره وأدبه في سلسلة من عيون الشعر، تصدرها دار الرشيد، د. محمد إبراهيم نصر، الرياض، (١٤٠٤هـ).

(٣٩) الشافعي: شعره وأدبه، ص٣٨.

www.mtenback.com

وعلى الرغم من حرص الإمام على التكثر من الأصدقاء فإنه عزوف عنهم إذا رأي ودهم متصنعًا متكلفًا، يقول[٤٠]:

إِذَا المَرْءُ لاَ يَرْعَاكَ إِلاَّ تَكَلُّفَا ... فَدَعْهُ وَلا تُكْثِرْ عَلَيْهِ التَّأَسُّفا

فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفِي التَّرْكِ رَاحَةٌ ... وَفِي الْقَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيْبِ وَلَوْجَفَا

إِذَا لَمْ يَكُنْ صَفْوُ الوِدادِ طَبِيعَةً ... فَلا خَيْرَ فِي وُدٍّ يَجِيء تَكَلُّفا

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيا إِذا لَمْ يَكُنْ بِهَا ... صَدِيقٌ صَدُوقٌ صَادِقُ الوَعْدِ مُنْصِفا

فمذهب الرجل في الصداقة أنه إذا لم يجد الصديق الذي يرتاح إليه يؤثر أن يجلس في بيته عفيف النفس كريم الأخلاق، إذا لم يكن صديقه تقيًا وفيًا لزم الصمت عن سيئاته لعله يعود إلى رشده يُنزه نفسه من عيب صديقه عندما يختلف معه ويحفظ له مكان الصداقة وإمكان العودة، يقول[٤١]:

لَسْتُ مِمَّنْ إِذَا أَخُوه ... أَظْهَرَ الذَّمَّ أَوْ تَنَاوَلَ عِرْضَا

بَلْ إِذا صَاحِبِي بَدا لِي جَفَاهُ ... عُدْتُ بِالوُدِّ وَالوِصَالِ لِيَرْضَى

حقًا هذه هي مكارم الأخلاق، والصداقة والأخوة التي سيطرت على جزء من أفكاره فسطرها أدبًا، فقال في الصديق نثرًا: «لا سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم، والغريب من فقد إلفه لا من فقد منزله»[٤٢].

أما المثقّب العبدي فلا يكفيه ظاهر الصداقة والمجاملة ولكنه يطلب المحض الظاهر ويعلن أنه لن يرضى بأقل من ذلك في حق الصداقة حين يقول[٤٣]:

---

[٤٠] الشافعي: شعره وأدبه، ص٤٢.

[٤١] الشافعي: شعره وأدبه، سلسلة من عيون الشعر، ص٣٤.

[٤٢] الشافعي: شعره وأدبه، سلسلة من عيون الشعر، ص٣٤

[٤٣] ابن ميمون:منتهى الطلب، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت (١٩٨٦م)، ج١ ص٢٨٦. وديوان شعر المثقب العبدي بتحقيق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية (١٢٩١هـ/١٩٧١م)، ص٢١١.

www.mtenback.com

فَإِمّـا أَنْ تَكُـوْنَ أَخِـي بِحَـقٍ فَأَعْرِفُ مِنْكَ غَثّـي مِـنْ سَـمِيْنِي
وَإِلا فَـاطَّرِحْنِي وَاتَّخِذنِـي عَـدُوًّا أَتّقِيـكَ وَتَتَّقِينِـي

ويبدو أن الإخوان الغدورين في الحياة أكثر من الإخوان الأوفياء، ولذلك كثرت على ألسنة الشعراء الشكوى منهم، ولقد غاص عمر بن عبدالعزيز في أعماق النفس البشرية عندما كان ينشد قول الشاعر[٤٤]:

إِنّـي لأَمْنَـحُ مَـنْ يُواصِلُـنِي مِنّـي صَفَـاءً لَيْـسَ بِـالَمَذْقِ
وَإِذَا أَخٌ لِـي حَـالَ عَـنْ خُلُـقٍ دَاوَيْـتُ مِنْـهُ ذاكَ بِـالّرِفْقِ
والَمـرْءُ يُصْنَـعُ نَفْسَـهُ، وَمَتَـى مَـا تَبْلُـهُ يَـنْزَعْ إِلى العِـرْقِ

فإذا تأملت البيت الثالث وجدت أن عمر بن عبدالعزيز يضع يده على حقيقة خُلُق الإنسان. هذه الحقيقة التي يستطيع المرء أن يخفيها بالتصنع والتملق، لأمرٍ في نفسه، فيسفر الاختبار والإبتلاء عن حقيقة دخيلته وعرقه الذي ينزع إلى الخير أو الشر، وهذا ينطبق على الصديق والمصادق، ومن هنا قال أحد الفلاسفة:

«من عاشر الإخوان بالمكر، كافؤوه بالغدر»، وقال إبراهيم بن أدهم:

«أنا منذ عشرين سنة في طلب أخٍ إذا غضب لم يقل إلا الحق فما أجده»[٤٥].

وما أحلى ما قيل في مجاملة الأخ[٤٦]:

أَخِـي أَنْـتَ وَمَـوْلايَ وَمَـنْ أَشْـكُرُ نَعْمَـاهُ
وَمَـا أَحْبَبْـتَ مِـنْ أَمْـرٍ فَـإِنّي – الدَّهْـرَ – أَهْـوَاهُ

---

[٤٤] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص٥٣.

[٤٥] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٣٠

[٤٦] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص١٣٨.

www.mtenback.com

وَمَـــا تَكْـــرَهُ مِـــنْ شَـــيْءٍ فَـــإِنِّي لَسْـــتُ أَرْضَـــاهُ
لَـــكَ اللهُ عَلَـــى ذا اكَ، لَـــكَ اللهُ، لَـــكَ اللهُ

وقد يكون من مكرور القول أن نقول إن الأخ الصدوق جدير بأن يُغضَى الطرف عن إساءته، لأنه واحد من البشر، والبشر فيهم صفتا الخطأ والصواب، قال الشاعر[٤٧]:

عَاشِرْ أَخَاكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُـقٍ وَاحْفَظْ مَوَدَّتَهُ بِالغَيْبِ مَـا وَصَـلا
فَأَطْوَلُ النَّاسِ غَمًّا مَنْ يُرِيْـدُ أَخًـا ذَا خِلَّـةٍ لا يَـرى فِي وُدِّهِ خَلَـلا

فمذهب هذا الشاعر معاشرة الصديق مهما كانت أخلاقه، وهذا المذهب مناقض لمذهب الآخر الذي يرى: «من لا يُردك فلا ترده» يعدّه الشاعر من غلط القول لا من صوابه. قال[٤٨]:

غَلِـطَ الفَتَـى فِي قَوْلِـهِ: «مَـنْ لاَ يُـرِدْكَ فَـلاَ تُـرِدْهُ»
مَـنْ نَـاقَشَ الإِخْـوَانَ لَـمْ يُبْـدِ العتَـابَ، ولم يُعِـدْهُ
عَـاتِبْ أَخَـاكَ إِذَا هَفَـا وَاعْطِـفْ بِفَضْلِـكَ وَاسْـتَعِدْهُ
وَإِذَا أَتَـاكَ بِغَيْبَـةٍ واشٍ، فَقُـلْ: لم يَعْتَمِـدْهُ
فَلَقَلَّمَـا طَلَـبَ الفَتَـى عَيْبًـا لِخِـلٍّ لَـمْ يَجِـدْهُ

لعل سؤالاً يُطْرَح: وهل يتغير الإخوان وتنعكس أخلاقهم إذا تغيروا بفعل الزمان؟ والجواب: نعم قد يتغير الأخ على أخيه إذا كانت أخلاقه مُزعزعة، فتبدل من فقر إلى غنى أو من ذل إلى عز وجاه وسلطان. والسلطان خاصة يغير الكثيرين من الأصدقاء،

---

[٤٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٢١٠.

[٤٨] أبوحيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢١٢.

www.mtenback.com

فينقلبون أول ما ينقلبون ضدّ أصدقائهم الحميمين ناسين مالهم من أيادي الفضل، قال الخوارزمي:

وَصَلْتُكَ بِالسُّلْطَانِ حَتَّى إِذَا اعْتَلَى مَكَانُكَ وَاسْتَمْكَنْتَ لَمْ تَمْلُكِ الحِقْدَا
كَمُقْتَدِحٍ نَارًا بِزَنْدٍ لِحَاجَةٍ فَلَمَّا تَلَظَّتْ نَارُهُ أَحْرَقَ الزَّنْدَا

ولأن بعض الإخوان يتنكرون لأصدقائهم في حال تسلمهم السلطة تمنى بعضهم ألا يمنحهم الله السلطة التي تباعد بينهم وبين أصدقائهم، فقال: إذا كان لك أخ صافي الود فلا تتمن له منزلة، ففي ذلك تَغَيُّرٌ له عن الوداد، قال الشاعر:

إِذَا أَرَدْتَ وِدَادَ امْرِئٍ فَلا تَدْعُوَنَّ لَهُ بِارْتِقَاء

علمًا أنه ليس من الوفاء للصديق ألا تتمنى له الرفعة والمجد، وإن كان من الذين يتغيرون بتغير الأحوال، لأن الصديق الذي تغيره صروف الزمان ليس من أهل مكارم الأخلاق، كما أنه ليس قدوة تحتذى، قال أبو تمام:

إِنَّ الكِرَامَ إِذَا ما أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

فذاك أولى من أن تتمنى ألا ترى صديقك في خيرٍ وعزٍّ وجاه.

ومن آداب الأمم الأخرى في الإخوان قول منسوب لأرسطو طاليس جاء فيه: «تعهد الإخوان بإحياء الملاطفة، فإن التارك متروك، ثم تعهد إخوان الإخوان، فإن إخوان الإخوان إخوان، وهم بمنزلة العلم المستدل على الوفاء، ثم تعهد أهل المعاشرة المتشبهين بالإخوان بالصبر عليهم، إما طمعًا في تحويل ذلك منهم صدقًا، وإما إتقاء كلمة فاجر وقعت في سمع مائق ذي دولة»[٤٩].

ومما يحسن ذكره في هذا المجال، ما ورد في الحديث عن الرسول ﷺ: «للمسلم على المسلم ست خصال واجبات، فمن ترك واحدة منها فقد ترك حقًا واجبًا لأخيه

[٤٩] التوحيدي، أبو حيان: الصداقة والصديق، ٣٧٦.

www.mtenback.com

عليه: أن يسلّم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويجيبه إذا دعـــاه، وينصحه إذا غاب، ويشيعه إذا مات»[٥٠].

وممّا ورد عن عمر بن الخطاب في حق الأخ والصديق قوله: «ثلاث يصفو بهـــا ود أخيك. تسلّم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليـــه».

وقد نظم بعض الشعراء هذه الكلمات فقال[٥١]:

ثَلاثٌ بِهَـــا تَصْفُـــو بِـــوُدٍّ أَخِيكَـــا ... إِذَا اجْتَمَعَتْ بَعْـــدَ الأُخُـــوَّةِ فِيكَـــا

تُسَـــلِّمْ عَلَيْـــهِ ضَاحِكًـــا مُتَحَبِّبًـــا ... إِلَيْـــهِ إِذَا لاقَيْتَـــهُ وَلَقِيكَـــا

وَتُوْسِعْ لَهُ بِـــالوُدِّ فِي كُـــلِّ مَجْلِـــسٍ ... كَمَا كُنْتَ يَوْمًـــا مُوسِـــعًا لأَبِيْكَـــا

وَتَدْعُـــوهُ مِـــنْ أَسْـــمَائِهِ بِأَحَبِّهَـــا ... إِلَيْـــهِ تَكُـــنْ بِـــالوُدِّ مِنْـــهُ وَشَـــيْكَا

وَدَاوِمْ عَلَيْهَـــا مَـــعْ أَخِيـــكَ فَإِنَّـــهُ ... مِنَ السُّوءِ عِنْـــدَ النَّائِبَـــاتِ يَقِيكَـــا

الخليل والخِلَّة:

في اللغة: الخِلّة: المصادقة والإخاء، والخُلّة: الصديق للذكر والأنثـــى والواحـــد والجميع. والخِلّ: الصديق المخلص. والجمع أخلال. كالخليل جمعها: أخلاء وخُلاّن، أو الخليل: الصادق، أو من أصفى المودة وأصحّها[٥٢].

والخُلّة: الصداقة، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾[٥٣]. فالآية تبيّن أن يوم القيامة لا تنفع فيه القيم المتعارف عليهـــا في الدنيـــا

---

[٥٠] الدارمي، سنن الدارمي، حققه: د. مصطفى ديب البغا، دار القلم، دمشق، (١٤١٢هـــ).

[٥١] الوطواط: جمال الدين محمد إبراهيم: غرر الخصائص الواضحة، وعُرر النقائص الفاضحة، مطبعة بولاق القاهرة، (١٤٨٤هـــ).

[٥٢] الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة خل.

[٥٣] سورة البقرة: الآية ٢٥٤.

www.mtenback.com

كالبيع والصداقة والشفاعة والوساطة. وأكد هذا المعنى في سورة إبراهيم حيث قال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[٥٤]. وعرف العربي ذلك وطلب النفع في الدنيا وليس في الآخرة فقال:

إِنِّي أُرِيدُكَ لِلدُّنْيَا وَحَاضِرِهَا ... وَلَا أُرِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ لِلدِّينِ

وقد ورد ما يصور العلاقة بين الأصدقاء الذين عاندوا الحق يوم القيامة بأنها ليست - كما كانت في الدنيا - علاقة ود بل هي علاقة عداوة، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[٥٥].

وورد (الخليل) في حديث الرسول في معرض اختيار الصديق، فقال ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر امرؤ من يخالل»[٥٦].

وقيل إن الخليل سمي خليلاً لأنه تخلل مسالك الروح من جسد صديقه، ولذلك قال الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلَا

وما دامت منزلة الخليل من صديقه كما وصف الشاعر، فهل يمكن أن يختلفا؟ واقع الحال يقول: نعم، حَدَّث التوحيدي أنه كان بين أبي الخطاب الصابي وبين أبي كعب، الداهية التي لا تُرأم، بعد صداقة كانت زائدة على صلة الرحم، ولُحمة النسب، فقيل لأبي الخطاب: كيف أنت مع ابن كعب ؟ فأنشد:

خَلِيلَانِ مُخْتَلِفٌ شَأْنُنَا ... أُرِيدُ العَلَاءَ، وَيَبْغِي السَّمَنْ

---

[٥٤] سورة إبراهيم: الآية ٣١.

[٥٥] سورة الزخرف: الآية ٦٧.

[٥٦] أبو داود: سنن أبي داود، ٢٥٩/٤ /٢٣٧٨ ومسند أحمد رقم ٨٠٦٥.

www.mtenback.com

فهو يقول: إننا خليلان، ولكنَّ صفة كل منا تختلف عن صفة صاحبه، فأنا أريد معالي الأمور، وأنشد رفعة المكانة، وأستهين في سبيل ذلك بكل شيء، أما صاحبي فإنَّ كلَّ ما يهمه هو إشباع بطنه، واكتناز لحمه، وتضخم أمواله[٥٧].

أما أبو فراس الحمداني فإنه يتحسر على الخل الموافق؛ لأنه غير موجود في هذه الدنيا، فيقول[٥٨]:

أَكُلُّ خليلٍ، هَكذَا، غَيرُ مُنصِفٍ ... وَكُلُّ زَمانٍ بالكِرامِ بَخيلُ

نَعَمْ دَعَتِ الدُّنْيَا إِلَى القَدْرِ دَعْوَةً ... أَجَابَ إِلَيْهَا عَالِمٌ وَجَهُولُ

فَيَاحَسْرَتِي مَنْ لِي بِخِلٍّ مُوافِقٍ ... أَقُولُ بِشَجْوِي مَرَّةً وَيَقُولُ

والشعراء يترددون كثيراً في مقاطعة الخليل، ويلجؤون إلى الصبر عليه إذا بدرت منه بادرة قطيعة، كما قال الشاعر:

أَشْكُو إِلى اللهِ جَفَاءَ امْرِئٍ ... مَا كَانَ بِالجَافِي وَلا بِالمَلُولْ

كَانَ وَصُولاً دائِمًا عَهْدُهُ ... خَيْرَ الأَخِلاَّءِ الكَرِيمَ الوَصُولِ

ثُمَّ ثَنَاه الدَّهْرُ عَنْ رَأْيِهِ ... فَحَالَ، وَالدَّهْرُ بِقَومٍ يَحُولْ

ولكن لسعيد بن حميد[٥٩] رأي آخر في الخليل الذي يكثر التجني على خليله، فهو يعمد إلى عتابه ومداراته والعفو عن سيئاته، يقول:

إِذَا كَثُرَتْ ذُنوبٌ مِنْ خَلِيلٍ ... فَقِفْهُ بَيْنَ وَصْلٍ واجْتِنابِ

وَأَنْظِرْهُ، فَلِلأَيَّامِ حُكْمٌ ... بِذَلِكَ كُلّ مَاضِي العَزْمِ نَابِي

---

[٥٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق انظر: ص ١٠٠.

[٥٨] أبو فراس الحمداني: ديوانه، شرح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ص١٣٦.

[٥٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٤٥.

www.mtenback.com

وَعاتِبْـهُ، فَكَـمْ أَبْـدَى عِتـــابٌ ... جَلِيَّـةَ مُشْـكِلٍ بَعْـدَ ارْتِيـــابِ
وَرَجِّ النَّفْعَ فِـــي الإِعْـرَاضِ عَنْـهُ ... إِذَا أَخْفَقْـتَ مِـنْ نَفْـعِ العِتَـــابِ
وَرَاجِعْـهُ بِعَفْـوِكَ حِيْـنَ يَثْنِـــي ... عِنانًـا لِلـــرُّجُوعِ أَوْ الإِيَـــابِ

وهناك شاعرٌ آخر يستوي عنده وصل خليله وقطعه، وقربه وبعده، فيقول:

إِنِّـي إِذا مـا الخَلِيـلُ أَحْـدَثَ لِي ... صَرْمًـا وَمَـلَّ الإِخَـاءَ أَوْ قَطَعَـا
لا أَحْتَسِـي مـاءَهُ عَلَـى رَنَـقٍ ... وَلاَ يَرانِـي لِبَيْنِـهِ جَزِعَـا

سمع هذا ابن كعب فقال: هذا ظلم، لِمَ لا أحتسي ماءه على رنق؟ ولِمَ لا أجزع لبينه ولِمَ لا أستصلحه؟ وأتلطف له؟ و لم لا أفرج عنه إذا أحدث لي صرمًا؟ ولعل صرمه عارض، ومللله عن غير عقيدة، وقطعه غلط، كأن الصديق مكسوب بسهولة، وموجود متى طلب، هيهات[٦٠].

الوُدّ والمودّة:

الود والوداد والمودة: الحُبّ، والودود: الكثير الحب. وتوَدَّدَهُ: اجتلب وُدَّه، وتودد إليه: تحبّبَ. والتواد: التحاب، ويقال: هم وُدي، وأهل ودي، كما يقال: حَفَشَ له الود: إذا أخرج كل ما عنده، وحَفَشتْ المرأة الود لزوجها: اجتهدت فيه، واستعمل الناس (المودة) ومشتقاتها بمعنى الصداقة القائمة على المحبة الخالصة، ولعلهم تأثروا باستعمال القرآن للفظة المودة ومشتقاتها، منها قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾[٦١] وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٦٢].

---

[٦٠] أبوحيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٣٧.

[٦١] سورة المائدة: الآية ٨٢.

[٦٢] سورة الروم: الآية ٢١.

www.mtenback.com

وعرَّف يحيى بن عدي الود[٦٣] فقال: «وهو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل وذوي الوقار والأبهة والمتميزين من الناس، فأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم والأحداث والنسوان وأهل الخلاعة فمكروه جدًا، وأحسن الود ما نسجته بين منوالين متناسبة الفضائل، وهو أوثق الود وأثبته، فأما ما كان ابتداؤه اجتماعًا على هزل أو لطلب لذة فليس محمودًا وليس بباقٍ ولا ثابت»[٦٤].

وإذا كانت نفوس الناس واحدة، «والمودة إنما تكون بالنفس، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة، لو لم تقدهم النفس الغضبية، فإن هذه النفس تحبّب لصاحبها الترؤس فتقوده إلى الكبْر والإعجاب والتسلط على المستضعف، واستصغار الفقير، وحسد الغني، وبغض ذوي الفضل، فتتسبب من أجل هذه الأسباب العداوات، وتتأكد البغضاء بينهم.. فما أولى من نظر في هذا القول وتصفحه، وفهم مضمونه وتدبّره، أن يأخذ نفسه باستعمال ما بُيِّن من فصوله، ويسوس أخلاقه بالتطرق إلى الذي قُنِّن في تضاعيفه، ويجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه، ويستفرغ غاية الوسع في طلب تمامه، فما أقبح النقص بالقادر على التمام. والعجز من المستعد لنيل الكمال»[٦٥]. ونقل عن حكيم من العرب أنه قال: «المودة تعاطف القلوب وائتلاف الأرواح، وحنين النفوس إلى مباثّة السرائر، والاسترواح للمستكنّات في الغرائز، من وحشة الأشخاص عن تباين الالتقاء، وظاهر السرور بكثرة التزاور»[٦٦].

---

[٦٣] كتاب تهذيب الأخلاق:مؤلفه يحيى بن عدي، أورده محمد كردعلي ضمن رسائل البلغاء.

[٦٤] محمد كردعلي: من كتاب (تهذيب الأخلاق) ليحيى بن عدي الوارد ضمن كتاب رسائل البلغاء ، ط٤، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٣٧٤هـ/١٩٥٤)، ص٤٩٣.

[٦٥] أبوحيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص٥١٧ -٥١٨.

[٦٦] أبوحيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٤٦٤.

www.mtenback.com

وتبدأ المودة بين إنسانين أول ما تبدأ، على استحياء وبأبسط أشكالها، غير أن كلاً من المتوادين له علامات يدركها في وجه يود وفي حركات صديقه. ومن هنا قال الشاعر[٦٧]:

تُبْدِي لَكَ العَيْنُ مافي نَفْسِ صَاحِبِهَا ... مِنْ الشَّنَاءَةِ أَوْ وُدٍّ إذا كانَا

إنَّ البَغِيْضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ بِهَا ... لا يَسْتَطِيعُ لَهَا فِي الصَّدْرِ كِتْمَانَا

وَعَيْنُ ذِي الوُدِّ مَاتَنْفَكُّ مُقْبِلَةً ... تَرَى لَهَا مِحْجَرًا بَشًّا وإِنْسَانَا

وَالْعَيْنُ تَنْطِقُ، والأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ ... حَتى تَرى مِنْ ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيَانَا

وإذا حصل الود في النفس الخيِّرة فَعَلَ فعل الغيث في التربة الطَّيِّبة، ورعاه أصحاب النفوس الخيِّرة وحافظوا على بقائه، وهذا من مكارم الأخلاق. قال الشاعر[٦٨]:

مَا وَدَّنِي أَحَدٌ إلا بَذَلْتُ لَهُ ... صَفْوَ المَوَدَّةِ حَتَّى آخِرِ الأَبَدِ

ولا قلاني، وَإِنْ كُنْتُ الْمُحِبَّ لَهُ ... إِلاَّ دَعَوْتُ لَهُ الرَّحْمَنَ بِالرَّشَدِ

وَلا أَخُونُ خَلِيلِي فِي خَلِيلَتِهِ ... حَتَّى أُغَيَّبَ فِي الأَكْفَانِ واللَّحَدِ

وإذا قامت المودة بين شخصين فيجب على كل منهما أن يحافظ عليها ويرعاها، ومن جملة خصائص المحافظة عليها قلة معاتبة ذي الود، وهذا مضمون قول الشاعر[٦٩]:

أَقْلِلْ عِتَابَ مَنِ اسْتَرَبْتَ بِوِدِّهِ ... لَيْسَتْ تُنَالُ مَوَدَّةٌ بِعِتَابِ

---

[٦٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٨٢.

[٦٨] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٢٥.

[٦٩] سمير شيخاني: قاموس الحكم والأمثال، ٥٩٦، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت لبنان (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

www.mtenback.com

ولحظ المفكرون نوعًا من الود سمّوه (الود المتعب) وهو الود وحيد الطرف، الذي يكون فيه أحد المتوادين مريض الصداقة، لأمرٍ في نفسه أو لدناءة في جنسه، وقد وصف شاعرٌ هذا النوع من الود فقال[٧٠]:

وَمَا أَنا بالنُّكْسِ الدَّنِيءِ، ولا الَّذي ... إِذَا صَدَّ عَنِّي ذُو المَوَدَّةِ أَحْرَبُ
وَلَسْتُ إِذَا ذُو الوُدِّ وَلَّى بِوُدِّهِ ... بِمُنْصَرِفٍ آثُو عَلَيْهِ وَأَكْذِبُ
أَلاَ إِنَّ خَيْرَ الْوُدِّ وُدٌّ تَطَوَّعَتْ ... بِهِ النَّفْسُ، لاَ وَدٌّ أَتَى وَهُوَ مُتْعَبُ

والود ككل أنواع الصداقة قد ينعقد بسبب دواع مادية، ويستمر ما استمرت الحاجة المادية قائمة، ويدوم مادام أحد الصديقين يغذيها، فإذا نضب الغذاء تعبت المودة، ولذلك قالوا: كل مودةٍ عقدها الطمع حلها اليأس. وقيل: إياك ومن مودته لك لحاجة إليك.

والود المتعب إذا تمادى فيه أحد المتوادّين، مر بمرحلة السقم وهو في طريقه إلى التلاشي، وفي هذه المرحلة يعمد أحد المتوادّين إلى الانقلاب على صاحبه، ويتبدل تعداد المحاسن إلى تعداد المساوئ، ومثل هذا ما حصل بين سعيد بن حميد وصديق له، قال سعيد فيه[٧١]:

لَقَدْ سَاءَنِي أَنْ لَيْسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبُ ... وَلاَ لَكَ فِي حُسْنِ الصَّنِيعَةِ مَرْغَبُ
أُفَكِّرُ فِي وُدٍ تَقَادَمَ بَيْنَنَا ... وَمِنْ دُونِهِ قُرْبَى لِمَنْ يَتَقَرَّبُ
وَأَنْتَ سَقِيمُ الْوُدِّ رَثٌّ حِبَالُهُ ... وَخَيْرٌ مِنَ الْوُدِّ السَّقِيمِ التَّجَنُّبُ
تُسِيءُ، وَتَأْبَى أَنْ تُعَقِّبَ بَعْدَهُ ... بِحُسْنَى، وَتَلْقَانِي كَأَنِّيَ مُذْنِبُ

---

[٧٠] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٥٦، والنكس: الضعيف. آثو: أشي به عند السلطان.

[٧١] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١١٨.

www.mtenback.com

وَأَحْذَرُ –إِنْ جَازَيْتُ بِالسُّوءِ والقِلَى– مَقَالَةَ قَــوْمٍ وُدُّهُــمْ عَنْــكَ أَجْنَــبُ
أَسَــاءَ اخْتِيَــارًا، أَوْ عَرَتْــهُ مَلالَــةٌ فَعَــادَ يُسِــيءُ الظَّــنَّ أَوْ يَتَعَتَّــبُ
فَخِبْتُ مِنَ الوُدِّ الَّذِي كُنْتُ أَرْتَجِــي كَمَا خَابَ رَاجِي البَرْقِ وَالْبَرْقُ خُلَّبُ

وعلى المتواديّن في هذه المرحلة – أعني مرحلة سقم المودة – الحذر من عبارات المجاملــة التي ظاهرها الصداقة وباطنها العداوة، ومن مثل هذا حذّر الشاعر فقال[٧٢]:

احْــذَرْ مَــوَدَّةَ مَــاذِقٍ مَــزَجَ المَــرَارَةَ بِــالحَلاَوَةْ
يُحْصِــي الذُّنُــوبَ عَلَيْــكَ أَيَّــا مَ الصَّدَاقَــةِ لِلْعَــدَاوَةْ

فنخلص إلى أن الأصدقاء نوعان: نوع تدوم صداقته، ولا يزيدها الزمان إلاّ بهاء ورواء، ونوعٌ لا تلبث أن تتخلّى عنه، وتعرض عن صداقته لعلّة أو مجموع من العلــل، تعجل بقطع الآصرة، ويتولى كل واحد وجهة أخرى يرى فيها أن القطيعة خير مــن استمرار صداقة لا رونق فيها ولا صفاء يعمر قلوب أهلها، يقــول أحــد الحكمــاء: «المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب بطيئة الانكســار هيّنة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بعيد اتصالها، كآنية الفخــار الــتي يكسرها أدنى شيء ولا جبر له»[٧٣].

الصاحب:

في اللغة: مشتقة من الصُحبة وهي المعاشرة، والفعل صَحِب، وتجمع (صاحب) على أصحاب وصِحاب وصَحابة وصَحْب[٧٤] وغيرها، والمصاحب الذي يصــاحبك ويرافقك.

---

[٧٢] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١١٨.

[٧٣] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٤٣.

[٧٤] الفيروزابادي: القاموس المحيط، مادة صحب.

www.mtenback.com

وقد وردت لفظة (الصاحب) في القرآن مرات بمعان مختلفة. منها الصاحب الذي يصاحبك في الحل والترحال. ومنها الصاحب الذي تجاوره ويجاورك، وقد اختلفت وجهات نظر المفسرين في لفظة (الصاحب) في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٧٥]، على أقوال، منها أنه: المرأة. والرفيق في السفر والرفيق الصالح، وغير ذلك[٧٦]. ومهما كانت وجهة نظر المفسرين في معنى الصاحب، فالله أمر بالإحسان إليه.

وقد حثَّ الرسول على الصحبة الحسنة. وأكَّد على أن أحق الناس بصحبة الرجل أمه، جاء رجل إليه فقال: «يا رسول الله، من أحق بحُسن صحابَتي؟ قال: أمك، قال: ثم مَن ؟ قال: ثم أمك، قال: ثم مَن ؟ قال: ثم أمك، قال: ثم مَن ؟ قال: ثم أبوك»[٧٧]. ورويت أحاديث نبوية كثيرة في المصاحبة. وهناك وصية لطيفة في الصحبة لعلقمة بن لبيد العطاردي يوصي ابنه قال: «يا بُنيَّ، إذا نَزَعَتك إلى صحبة الرجال حاجةٌ فاصحب منهم من إن صحبتَه زانك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتْك خصاصةٌ مانك وإن قلت صدَّق قولك. وإن صلت شدَّ صولك. وإن مددتَ يدك بفضلٍ مدَّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها. وإن سألته أعطاك. وإن سكتَّ عنه ابتداك، وإن نزلتْ بك إحدى الملمات آساك. من لا يأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق، وإن حاول حويلاً آمَرَكَ، وإن تنازعتما منفسًا آثرك»[٧٨].

---

[٧٥] سورة النساء: الآية ٣٦.

[٧٦] الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، ٣٨٩/١.

[٧٧] رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: صحيح البخاري، رقم ٥٩٧١.

[٧٨] ابن قتيبة: عيون الأخبار، كتاب الإخوان المجلد الثالث، ص٤، والجاحظ: المحاسن والأضداد، ص٧٩.

www.mtenback.com

وأكد الحكماء على مصاحبة الأخيار والابتعاد عن الأشرار. قال ابن المقفع: «صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت على التِّبْن حملت تبنًا، وإذا مرت على الطيب حملت طيبًا». [٧٩] وقال الشاعر:

إِذَا ما أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرا

ولما غنى علوية المأمون قول الشاعر[٨٠]:

وَإِنِي لَمُشْتَاقٌ إِلى ظِلِّ صَاحِبٍ يَرِقُّ وَيَصْفُو إِنْ كَدِرْتُ عَلَيْهِ

عَذِيرِي مِنَ الإِنْسَانِ لا إِنْ جَفَوْتُهُ صَفا لِي، وَلا إِنْ صِرْتُ طَوْعَ يَدَيْهِ

استعاده المأمون مرات، ثم قال: هات يا علوية هذا الصاحب وخذ الخلافة. ثم عقّب أبو حيان على ذلك بقوله: «قد صرنا - ولله الحمد - نرضى اليوم من الصاحب والجار والمعامل والتابع والمتبوع أن يكون فضلهم غامرًا لنقصهم، وخيرهم زائدًا على شرهم، وعدلهم أرجح من ظلمهم، وأنهم إنْ لَمْ يبذلوا الخير كله لم يستقصوا الشر كله، بل قد رضينا بدون هذا، وهو أن نهب خيرهم لشرهم، وإحسانهم لإساءتهم، وعدلهم لجورهم فلا نفرح بهذا، ولا نحزن لذاك، ونخرج بعد اللتيا والتي بالكفاف والعفاف»[٨١]. وقال الشاعر:

وَإِذَا صَاحَبْتَ فَاصْحَبْ مَاجِدًا ذَا حَيَاءٍ وَعَفَافٍ وَكَرَمْ

قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ: «لا» إِنْ قُلْتَ: «لا» وَإِذَا قُلْتَ: «نَعَمْ» قَالَ: «نَعَمْ»

وهذا الصاحب المتصوَّر ليس موجودًا، لأن الصاحب واحد من البشر، والبشر لهم ما لهم من العيوب. قال الشاعر:

---

[٧٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٤٢، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ص٢٤٠.

[٨٠] أبي العتاهية: ديوانه، شرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١،(١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص٤١٥.

[٨١] أبوحيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٦١/٦٠. وانظر الأصفهاني: محاضرات الأدباء ٢٥٠.

www.mtenback.com

أَتَطْلُبُ صَاحِبًا لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَأَيُّ النَّاسِ لَيْسَ لَهُ عُيُوبُ

ومما ينسب لابن قيس الرُّقَيَّات في وصف الصاحب، روى أبو حيان قال[٨٢]:

لا يُعْجِبَنَّكَ صَاحِبٌ حَتَّى تَبَيَّنَ مَا طِباعُهْ
مَاذَا يَضِنُّ بِهِ عَلَيْ كَ، وَمَا يَجُودُ بِهَ اتِّساعُهْ
وَإِذَا الزَّمَانُ رَمَى صِفَا تَكَ بِالحَوادِث ما دِفاعُهْ
فَهُنَاكَ تَعْرِفُ مَا ارْتِفَا عُ هَوى أَخِيكَ وَمَا اتِّضاعُهْ

وقد حذر الحكماء من مصاحبة الجاهل فقال الشاعر[٨٣]:

فَلاَ تَصْحَبْ أَخَ الجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيمًا حِيْنَ آخَاهُ
يُقَاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ إِذَا مَاهُوَ مَاشَاهُ

وقد لاحظ العلماء أن الإنسان يصطفي من البشر للمصاحبة من يشاكله في الطباع، ومن يرتاح إليه في الأخلاق. وهذا مصداق قول الشاعر:

وَلا يَصْحَبُ الإِنْسَانُ إِلاَّ نَظِيْرَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُونا مِنْ قَبِيلٍ وَلاَ بَلَدْ

وقال الحكماء: «عليك أن تصحب العاقل وإن لم يكن كريمًا لتنتفع بعقله، واهرب كل الهرب من اللئيم الأحمق، وقيل من صبر على الأحمق فهو مثله»[٨٤] وقيل في اختيار الصاحب «إذا أردت مصافاة رجل فأغضبه، فإن ملك نفسه فصاحبه، وإلا فلا تصاحبه». وقال الشاعر:

---

[٨٢] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ١٨١.

[٨٣] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٥٢.

[٨٤] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٤٢ والراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ٢٤٠.

www.mtenback.com

لاَ تَحْمَدَنَّ امْرَأً يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَاخْبَرْ مَوَدَّتَهُ فِي العُتْبِ وَالغَضَبْ

فإذا لمست منه نفوراً فعليك بالإقلاع عن صداقته، لأن معنى ذلك أن التوافق بينكما قد آذن بالأفول. يقول الشاعر:

فَلاَ خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَكَارِهٍ عَلَيْكَ وَلاَ فِي صَاحِبٍ لاَ تُوافِقُهْ

وقال ابن المقفع يصف الصاحب المثالي: «إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه عندي صغَر الدنيا في عينه، كان خارجًا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لايجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجًا من سلطان فرجه فلا تدعو إليه مروءته، ولا يستخف له رأيًا ولابدنًا،كان لايأشر عند نقمة، ولايستكين عند مصيبة، وكان خارجًا من سلطان الجهالة،فلا يقدم إلا على ثقة أومنفعة، وكان أكثر دهره صامتًا فإذا قال بذَّ القا ئلين، كان يُرى متضعِّفًا مستضعفًا، فإذا جدَّ الجد فهو الليث عاديًا، و كان لا يدخل في دعوى و لايشرك في مراء، و لا يُدلي بحجة حتى يجد قاضيًا عدلاً و شهودًا عدولا، وكان لا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلمَ ما اعتذاره، وكان لا يشكو وجعًا إلا إلى من يرجو عنده البرء، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخَّط ولا يتشهى ولا يتشكَّى، ولا ينتقم من الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتَ ولن تطيق، ولكنَّ أخذَ القليل خير من ترك الجميع»[٨٥].

وأكثر الحكماء وأصحاب التجارب ينصحون أبناءهم وأهل الود منهم بمثل هذه الحكم والأقوال، ويظهرون قيمة الحكمة وأهميتها وحسن اختيار الإنسان لجميل القول الذي يهديه إلى حسن الصحبة واختيار الأصحاب الذين ينفعون عند الحاجة.

---

[٨٥] محمد كردعلي:رسائل البلغاء نقلا عن اليتيمة الأولى، ١٣٨.

www.mtenback.com

العشير:

العشير في اللغة والعُشر، جمعها عشور وأعشار: القريب والصديق، وتعاشروا: تخالطوا، وعشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون، أو قبيلته، جمعها عشائر. والمعشر: الجماعة العظيمة، وأهل الرجل[٨٦]، والمعاشرة: المداخلة. وقد وردت (لفظة عشير) في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[٨٧]. و وردت مرة أخرى بفعل الأمر، في خطابه عز وجل للمؤمنين يأمرهم بأن يعاشروا نساءهم بالمعروف، لأن المعاشرة بالمعروف من مكارم الأخلاق وهي من أحسن صفات الرجل في علاقته بالمرأة، وفيها دوام العلاقة الطيبة بين أفراد الأسرة الصالحة التي يتكون منها المجتمع الصالح. قال عز وجل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٨٨].

وأمر الرسول بمعاشرة الناس والصبر على أذاهم فإن ذلك خير من العزلة والانقطاع عن البشر. قال: «إنَّ المسلم إذ كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٨٩].

وفي الأمثال: «قل لي مَنْ تعاشر أقل لك مَنْ أنتَ». وقالت الحكماء: «معاشرة ذوي الألباب عمارة القلوب».

والمثل الفرنسي يقول: «من يعاشر الذئاب يتعلم العواء». وقال الحكيم: «تعاشروا كالأحباب، وتعاملوا كالأجانب». ومن الأقوال المأثورة قولهم: «ومن عاشر الأنذال حُقِّر، ومن عاشر العلماء وُقِّر». ومن شعر الإمام الشافعي قوله:

---

[٨٦] الفيروز ابادي: القاموس المحيط، مادة عشر.

[٨٧] سورة الحج: الآية ١٣.

[٨٨] سورة النساء: الآية ١٩.

[٨٩] أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب صفة القيامة، باب ٥٥، حديث رقم: ٢٥٠٧.

www.mtenback.com

وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ، وسَامِحْ مَنِ اعتدى وَفَارِقْ، وَلَكِنْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
لِسَانَكَ. لاَ تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

والمعاشرة قد تنبثق من نقيضتها المعاسَرة، فقد ورد في محاضرات الأدباء قولهم: «قيل مع الاختلاف طمع في الائتلاف، ورب مخالفة، دعت إلى محالفة، ومعاسرة دعت إلى معاشرة»[٩٠].

ومن غريب ما جاء في هذا الباب أن الإنسان قد يعاشر من لا يحب، ومصداق هذا ماروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لطليحة الأسدي: وقتلتَ عكاشة بن محصن! لا يحبك قلبي. قال: فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين، فإن الناس يتعاشرون على البغضاء»[٩١].

وأي تسامح مع غلائل النفوس غير هذا، حين يكون بين الإنسان والآخر مايكون من خلاف أو تعارض في الآراء والمواقف فلابد من التعامل بالحسنى وإن لم يكن هناك حب أو قبول، إن الحياة تفرض على المرء المجاملة والعدل في المعاملة لمن رضي الإنسان سلوكه ومن لم يرض عنه، وقد كان قول طليحة مذهبًا إنسانيًا جميلاً عندما تطلب المعاملة الحسنة دون الحب.

الرفيق:

في اللغة: الرِّفق: ما استعين به، واللطف، والرُّفقة: جماعة ترافقهم، والرفيق: المُرافِق، وجمعها: رفقاء ورفاق وأرفاق. والرِّفق: اللطف وحسن الصنيع. ورافقه: صار رفيقه، وترافقا[٩٢].

---

[٩٠] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، هذبه واختصره إبراهيم زيدان، دار الآثار، بيروت. (د.ت)، ص٢٤٣.

[٩١] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ٩/٧.

[٩٢] الفيروز ابادي: القاموس المحيط، مادة رفق.

www.mtenback.com

وقد وردت لفظة (الرفيق) في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٩٣]. فالآية تعني مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة، وفي اللغة تعني المرافق بلطف وعناية واجتماع على خير.

وفي الحديث الذي روته عائشة عن وفاة الرسول ﷺ أن الرفيق الأعلى هو الله قالت: سمعت رسول الله يقول: اللهم الرفيق الأعلى، ثلاثًا. ثم قضى[٩٤].

وأكثر ما يستعمل العرب لفظة (الرفيق) لصديق السفر، أو المصاحب في الطريق، ومن هنا جاء قول الشاعر:

أَكْرِمْ رَفِيْقَكَ، وَاعْلَمْ حِيْنَ تَصْحَبُهُ ... أَنَّ الرَّفِيقَ أَخٌ مَا ضَمَّهُ السَّفَرُ

وقال الآخر في المعنى نفسه:

كَمْ صَدِيقٍ عَرَفْتُهُ بِصَدِيقٍ ... كَانَ أَحْظَى مِنَ الصَّدِيقِ العَتِيقِ

وَرَفِيقٍ صَحِبْتُهُ فِي طَرِيقٍ ... صَارَ- بَعْدَ الطَّرِيقِ- خَيْرَ رَفِيقِ

فأنت ترى أن بعض (رفاق) الطريق قد ينقلبون إلى أصدقاء قلما نجد أمثالهم طوال الحياة، ولكن النفوس البشرية مختلفة. فبعض من ترافق قد لا يكون بهذه الصفة، وإنما فيه ما في البشر من نوازع خيِّرة وشريرة. فإذا لمست فيه نوازع شريرة فما عليك إلا الصبر عليها، كما يرى ذلك الشاعر حيث يقول:

سَأَصْبِرُ عَنْ رَفِيقِي إِنْ جَفَانِي ... عَلَى كُلِّ الأَذَى إِلاَّ الهَوَانِ

---

[٩٣] سورة النساء: الآية ٦٩.

[٩٤] أخرجه البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم: ٤٤٣٨، باب ٨٤، وانظر كتاب الدعوات، باب ٢٩، حديث ٦٣٤٨.

www.mtenback.com

الجليس:

في اللغة: الجَليس، والجِلْس، والجِلّيس: المجالس. وهو الذي يجالسك في مكان، ويكثر من مجالستك، ولا يكثر من المجالسة إلا صديق أو صاحب أو عشير ترتاح إلى مجالسته والحديث معه. وتوارث العرب احترام الجليس. فمما يروى عن عمر بن عبدالعزيز أنه قام بنفسه فأصلح سراجه، فقال واحد من جلسائه: ألا أمرتني فكنتُ أكفيك؟

قال: ليس من المروءة أن يستخدم الرجل جليسه [٩٥]. وكانوا ينفرون من جليس السوء ويقبلون على الجلوس مع جليس الخير، قال الشاعر[٩٦]:

وَحْدَةُ الإِنْسانِ خَيْرٌ ... مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ عِنْدَهْ

وَجَلِيسُ الخَيْرِ خَيْرٌ ... مِنْ جُلُوسِ المَرْءِ وَحْدَهْ

وموقف عمر بن عبدالعزيز صورة انعكاس لموقف الرسول ﷺ؛ روي أن النبي ﷺ كان يأكل تمرًا ومعه جليس له، فكان النبي ﷺ إذا رأى حشفة عزلها، فقال جليسه: يا رسول الله أعطني الحشفة حتى آكلها، قال: لا أرضى لجليسي إلا ما أرضاه لنفسي[٩٧]. وقال الشاعر:

ما عاتَبَ المَرْءَ الكَرِيمَ كَنَفْسِهِ ... وَالمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

وكان معاوية بن أبي سفيان يعد مجالسة الجليس الظريف لذة من لذائذ الدنيا، وخاصة للرجل الكبير الذي تلاشت عنده اللذائذ، قال معاوية: أكلت الطعام حتى لم أجد طعمه، وركبت الدوابّ حتى استرحت إلى المشي، وما بقي من لذتي إلا جليس

---

[٩٥] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ٢٤٧.

[٩٦] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ٢٥٤.

[٩٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٢.

www.mtenback.com

أطرح بيني وبينه الحشمة[٩٨]، على حين نرى بشاراً يستثقل بعض الجلساء على شدة حاجة المكفوف إليهم. قال:

رُبَّمَا يَثْقُلُ الجَلِيسُ وَإِنْ كَا ... نَ خَفِيفًا فِي كَفَّةِ المِيزانِ

وخير ما يذكر في صحبة الناس ومجالستهم من التجارب ما رواه ثابت البناني بعد تجربة طويلة مع الناس فحص أخلاقهم وابتلى طباعهم فقال: «جالست الناس خمسين سنة، فما جالست أحدًا إلا وهو يحب أن تنقاد الناس لهواه، وأن الرجل ليخطىء فيحب أن يخطىء الناس كلهم»[٩٩]. وأوصى الحكماء على معاملة الجليس بالحسنى كمعاملة الخليل. قال الشاعر[١٠٠]:

لا أُسْمِعُ -الدَّهْرَ - جَلِيسِي الأَذَى ... مِنْ أَنْ لِسَانِي عَنْ جَلِيسِي كَلِيلْ

إِنَّ خَلِيلِي وَاحِدٌ وَجْهُهُ ... وَلَيْسَ ذُو الوَجْهَيْنِ لِي بِالخَلِيلْ

ولا يخلو الإنسان من أن يكون له سر، ومستودع أسراره جليسه فإذا كان صالحًا حفظ سر جليسه وفاز بصداقته، وإن كان جليساً طالحًا أفشى أسرار صديقه، ولهذا وجب الحذر كما قال الشاعر:

يُخْرِجُ أَسْرَارَ الفَتَى جَلِيسُهُ ... رُبَّ امْرِئٍ جاسُوسُهُ أَنِيسُهُ

وقال الحراني: الجليس الصالح كالسراج اللائح، والجليس الطالح للمرء فاضح، مجالسة الأشكال تدعو إلى الوصال، ومجالسة الأضداد تذيب الأكباد، وقد ورد: مَثَل الجليس الصالح كمثل الداري «العطار منسوبًا إلى دارين، وهي فُرضة بالبحرين يحمل

---

[٩٨] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، انظر: ١٧٥.

[٩٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٦٤.

[١٠٠] المصدر السابق، ٣١٦.

www.mtenback.com

إليها المسك من الهند إن لا يُجْدِك من عطره يَعْبَقْ بك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لا يحرقك بشرره، يؤذك بدخانه»[١٠١].

ومما ينسب للإمام علي رضي الله عنه كلمتان: إحداهما نثر والأخرى شعر، أما النثر فقال: «جالس الفقراء تزدد شكرًا» وأما الشعر فقال:

تَنَزَّهْ عَنْ مُجَالَسَةِ اللِّئَامِ ... وَأَلْمِمْ بِالكِرَامِ بَنِي الكِرَامِ

وقال ابن المقفع: «لا تجالس امرأً بغير طريقته، فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم، والجافي بالفقه، والعَيّ بالبيان، لم تزد على أن تضيع عقلك، وتؤذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف وغمّك إياه بمثل ما يغتمُّ به الرجلُ الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه، واعلم أنه ليس شيء من علمٍ تذكره عند غير أهله إلا عادَوه، ونصبوا له، ونقضوه عليك، وأبغضوك عليه، وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً حتى إن كثيرًا من اللهو واللعب الذي هو أخف الأشياء على الناس ليحضره من لايعرفه فيثقل عليه ويغتم به»[١٠٢].

القرين:

القرين في اللغة: المقارِن والمصاحب، وجمعه: قُرَناء. وقد وردت في القرآن غير مرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[١٠٣] وقال عز وجل: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[١٠٤].

والقرين بمعنى المصاحب الواردة في القرآن لم ترد المصاحبة، وبهذا المعنى ــ أي قرين السوء ــ جاءت لفظة (قرناء) في الكلمة المنسوبة إلى بزر جمهر، قال: «إياك

---

[١٠١] المصدر نفسه، ١٣٣.

[١٠٢] محمد كردعلي: رسائل البلغاء من الأدب الكبير، ٩٩.

[١٠٣] سورة النساء: الآية ٣٨.

[١٠٤] سورة فُصّلت: الآية ٢٥.

www.mtenback.com

وقرناء السوء،فإنك إن عملت قالوا: راءيت،وإن قصرت قالوا: أثمت، وإن بكيت قالوا:شهرت، وإن ضحكت قالوا: جهلت، وإن نطقت قالوا: تكلفت، وإن سكت قالوا: عييت، وإن تواضعت قالوا: افتقرت وإن أنفقت قالوا: أسرفت، وإن اقتصدت قالوا: بخلت»[١٠٥] وقريب من هذه المعاني للقرين ما ورد في الشعر العربي، قال عبدالصمد بن المعذّل[١٠٦]:

هِيَ النَّفْسُ تَجزِي الوُدَّ بِالوُدِّ مِثْلَهُ ... وَإِنْ سُمْتها الهُجْرانَ فَالهَجْرُ دِينُها

إِذَا ما قَرِينٌ بَتَّ مِنْهَا حِبالَهُ ... فَأَهْوَنُ مَفْقُوْدٍ عَلَيْهَا قَرِينُها

لَبِئْسَ مُعارُ الوُدِّ مَنْ لا يَوَدُّهُ ... وَمُسْتَوْدَعُ الأَسْرارِ مَنْ لا يَصُونُها

وقريب من هذا المعنى، قول الشاعر عدي بن زيد[١٠٧]:

عَنِ المَرْءِ لاَ تَسْأَلْ، وَأَبْصِرْ قَرِينَهُ ... فَإِنَّ القَرِينَ بِالمُقَارَنِ مُقْتَدِ

عناصر الصداقة ومقومات الصديق:

للصداقة في نظر الذين كتبوا عنها عناصر كثيرة، أغلبها يعود إلى طبيعة الأخلاق. فهي غريزة فطرية، وبعضها يعود إلى التربية، فتكون مكتسبة من البيئة والمحيط، وللصديق أيضًا مقومات جمة، قال التوحيدي: الكلام في الصداقة يكون على كرم العهد، وبذل المال، وتقديم الوفاء، وحفظ الذمام،و إخلاص المودة، ورعاية الغيب وتوقر الشهادة، ورفض الموجدة، وكظم الغيظ واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكل وبذل المعونة، وحمل المؤونة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الاستنامة، والثبات على الثقة، والصبر على الضراء. والمشاركة في البأساء[١٠٨].

---

[١٠٥] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٤١.

[١٠٦] المصدر نفسه، ٣٧٧.

[١٠٧] المصدر نفسه، ٨٥.

[١٠٨] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٢٩.

www.mtenback.com

وميز التوحيدي الصداقة عن الأمور التي تقترب منها، كالعلاقة والعشق وأشباههما. قال عن الفرق بين الصداقة والعلاقة: «**الصداقة** أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من نوازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرضى إلى حدود الرشاد، وآخذ بأهداب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة.

فأما **العلاقة** فهي من قِبَل العشق والمحبة والكلف والشغف والتتيم والتهيم والهوى والصبابة والتدانف والتشاجي. وهذه كلها أمراض أو كالأمراض، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية وليس للعقل فيها ظل ولا شخص، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث، وتنال منهم وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقل، وآداء النفوس، وفضائل الأخلاق، وفوائد التجارب. ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ، ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج، والطريق الوسط[١٠٩].

ثم نقل كلامًا لرجل يميز فيه مكانة الصديق ويفضلها على كل شيء ويبين حاجة الإنسان إلى الصديق المخلص بصداقته الوفي لموجبات الصداقة فيقول: يا هذا! الصديق لكل شيء، للجد والهزل، وللقليل والكثير ولا عازل عليه، ولا قادح فيه، وهو روضة العقل، وغدير الروح[١١٠].

ونقل عن أبي عامر النجدي قوله: «الصديق من صدقك عن نفسه، ليكون على نورٍ من أمرك. ويصدقك أيضًا عنك، لتكون على مثله، لأنكما تقتسمان أحوالكما

---

[١٠٩] المصدر نفسه، ١١٤.

[١١٠] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٤١ .

www.mtenback.com

بالأخذ والعطاء في السراء والضراء والشدة والرخاء، فليس لكما فرحة ولا ترحة، إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق، والانكماش والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش»[١١١].

وراح أبوحيان ينقل صفات الصديق كما وصفه البلغاء وأرباب الأقلام. فقال: «قيل للحراني: بينك وبين سهل بن هارون صداقة، فانعته لنا كي نعرف. فقال: هو كالخير وازن العِلم، واسع الحِلم، إن حوِدث لم يكذب، وإن موزح لم يغضب، كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أوفت أحيَتْ، وكالأرض ما حمّلتها حملت، وكالماء طهور لمتمسه، وناقع لغُلّة من احترّ إليه، وكالهواء الذي نقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور»[١١٢].

ولم يكتف أبو حيان بحديث البلغاء عن مقومات الصديق الصدوق وإنما تجاوز ذلك إلى المتزهدين الذين كانوا كثرًا في زمانه وهم يفلسفون الأشياء. «قيل لبرهان الصوفي: مَن الصديق ؟ قال: يا هذا، من بِضع نصفه معدوم عليك، أطلب من يسعك بخلقه، ويؤنسك بنفسه، ويواسيك من قليله، إن رضي عنك لم يغلظك، وإن سخط عليك لم يمقتك، يبدي لك خيره لتقتدي به، ويواري عنك شره، لئلا تستوحش منه. فأما من تكون مثالَ نفسه في كل حال، تتلون به الدهر وهمّ صدره في كل أمر، يقلّب به الليل والنهار، يقدّم حظّك على حظه، ولا يسارق النظر بلحظه، ولا يغلِظ القول بلفظه، ولا يتغير لك في غيبه، ولا يحول عما عهدته في شهادته، يعانق مصلحتك بالاهتمام، ويثّبت قدمك عند الإقدام والإحجام، فذاك شيء قد سدّ الناس دونه كل

---

[١١١] المصدر نفسه، ١٦٦.

[١١٢] المصدر نفسه، ٣٠٣/٣٠٤.

www.mtenback.com

باب، وقصر الطمع فيه عن كل قاب، فليس له شبح إلا بالوهم، ولا خيال إلا في التمني»[١١٣].

الصداقة في أدبيات الأمم الأخرى وانعكاسها على الفكر العربي:

ليست ظاهرة الصداقة مقصورة على الأمة العربية، ولم ينفرد بها العرب عن سواهم من الأمم الأخرى، بل من المسلّم به أنه ما من أمة إلا وتقوم بين أفرادها علاقات صداقة، وإن كنا نرى أن الصداقات في أوساط الشعوب الشرقية تختلف عنها في أوساط الشعوب الغربية. ومن الدقة القول إن الشعوب الشرقية نفسها متفاوتة في مفهومها للصداقة، وكذا هي أيضًا متفاوتة بالنسبة للشعوب الغربية. وإن مفهوم الصداقة عند البدوي والريفي يختلف عنه عند المدني والحضري، ويفسر بعضهم أن درجة الأمة من سلم الحضارة تلعب دورًا في نظرتها للصداقة، كما يلعب التطور التاريخي للأمة دورًا في صقل مفهومها للصداقة.

وليس لدينا من المراجع والمصادر ما يسعفنا بتصوير حالات الصداقات في الأمم قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها. غير أن الأمم العريقة تتقارض في مفهوماتها، وتتحاور في أفكارها وعاداتها ومن هذه الأمم العريقة، فضلاً عن الأمة العربية، الأمة اليونانية والفارسية والهندية والصينية. وتنفرد الأمة اليونانية بأن بعض أفكارها وفلسفتها قد انتقلت في فترة مبكرة إلى الحضارة العربية، وأثّرت مترجماتها على نواحٍ في الفكر العربي والإسلامي. ويظل أرسطو من أبرز الباحثين اليونان في الفلسفة والمنطق والأدب الذين تركوا بصماتٍ على الفكر العربي في القرون الوسطى. وإذا تلمسنا أثره في فلسفة الأخلاق ومنها الصداقة فإننا واجدوه في كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس».

---

[١١٣] المصدر نفسه، ٣٠٨.

www.mtenback.com

ونكتفي بالوقوف عند المقالتين الثامنة والتاسعة من كتاب (الأخلاق) لأرسطو، لأنهما هما اللتان تعنياننا؛ إذ عنوان الأولى (المحبة – ضرورتها) والثانيـــــة (الصداقـــة) وتندرج تحت المقالة الثامنة مجموعة من الفصول هي على النحو التالي:

المحبة – ضرورتها.

النظريات المختلفة بشأن طبيعة المحبة.

أنواع المحبة: المحبة القائمة على المنفعة والمحبة القائمة على اللذة.

الصداقة القائمة على الفضيلة.

مقارنة بين الصداقة التامة وسائر الصداقات.

الملكة والفعل في الصداقة.

الروابط الخاصة بين مختلف ألوان الصداقة.

المساواة واللامساواة في الصداقة.

المساواة في العدل وفي الصداقة، بذل الصداقة وتبادلها.

المحبة الفعّالة والمحبة المنفعلة.

المحبة والعدالة. أنماط المحبة، الجمعيات الخاصة والمدنية.

النظم السياسية والصداقات المناظرة لها.

أشكال الصداقة المناظرة للنظم السياسية.

المحبة بين الأقارب وبين الأزواج.

قواعد عملية للصداقة بين الأكفاء. الصداقة النفعية.

قواعد السلوك في الصداقة بين غير الأكفاء.

أما المقالة التاسعة فتَنْدرج تحتها الفصول التالية:

مختلف أنواع الصداقة. تحديد الجزاء.

التنازع بين مختلف صور الصداقة.

www.mtenback.com

في قطع الصداقة.

تحليل الصداقة: الإيثار والأثرة.

تحليل النصيحة.

تحليل الاتفاق.

تحليل الإحسان.

الأنانية: دورها وأشكالها.

هل يحتاج السعيد إلى أصدقاء ؟

في عدد الأصدقاء.

الحاجة إلى الأصدقاء في الرخاء والشدّة.

الحياة المشتركة في الصداقة.

أما ابن مسكويه فبدأ مفرقًا بين الصداقة والعشق، حين قال: «الصداقة نوع من المحبة. إلا أنها أخص منها، وهي المودة بعينها، وليس يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة، وأما العشق فهو إفراط في المحبة، وهو أخص من المودة، وذلك أنه لا يمكن أن يقع إلا بين اثنين فقط»[١١٤] ثم راح ابن مسكويه يعرِّف الصديق في فصل عنوانه: محبة الأخيار، وهو عنوان مرَّ في تقسيمات أرسطو، قال ابن مسكويه: «وأما محبة الأخيار بعضهم بعضًا فإنها تكون لا للذة خارجة، ولا لمنفعة، بل للمناسبة الجوهرية بينهما، وهي قصد الخير والتماس الفضيلة، فإذا أحب أحدهم الآخر لهذه المناسبة لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة، ونصح بعضهم بعضًا، وتلاقوا بالعدالة والتساوي في إرادة الخير، وهذا التساوي في النصيحة وإرادة الخير هو الذي يوحد كثرتهم، ولهذا حُدَّ الصديق بأنه آخر هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص، ولهذا صار عزيز

[١١٤] ابن مسكويه، أحمد بن محمد: تهذيب الأخلاق، مطبعة المعارف، بيروت، (١٣٢٧هـ)، ص١١٤.

www.mtenback.com

الوجود، و لم يوثق بصداقة الأحداث والعوام ومن ليس بحكيم، لأن هـــؤلاء يحبـــون ويصادقون لأجل اللذة والمنفعة، ولا يعرفون الخير بالحقيقة، وأغراضهم غير صحيحـــة، وأما السلاطين فإنهم يظهرون الصداقة على أنهم متفضلـــون ومحســـنون إلى مـــن يصادقهم، فلا يدخلون تحت الحد الذي ذكرناه، وفي صداقتهـــم زيـــادة ونقصـــان، والمساواة عزيزة الوجود عندهم»[١١٥].

وفي فصل عنوانه: الأصدقاء، تعرّض لفكرة كان قد طرحها أرسطو، وهي: هل للسعيد أصدقاء؟ قال ابن مسكويه: «فالسعيد إذًا مَن اكتسب الأصدقاء، واجتهـــد في بذل الخيرات لهم؛ ليكتسب بهم ما لايقدر أن يكتسبه لذاته، فيلتذ بهم أيـــام حياتـــه، ويلتذون أيضًا به،... وأما الصديق الأول الذي ذكرنا وصفه فلا يمكن أن يكون كثيرًا لعزته ولأنه محبوب بإفراط، وإفراط المحبة لا يصح ولا يتم إلا لواحد، وأما حُسن العِشرة وكرم اللقاء، والسعي لكل أحد بســـيرة الصديق الحقيقي فمبـــذول لأجـــل طلـــب الفضيلة وأرسطوطاليس يقول: «إن الإنسان محتاج إلى الصديق عند حُسن الحال وعند سوء الحال، فعند سوء الحال يحتاج إلى معونة الأصدقاء، وعند حسن الحال يحتـــاج إلى المؤانسة وإلى من يحسن إليه»[١١٦].

وينصح ابن مسكويه في فصلٍ آخر فيقول: «لذلك يجب عليك متى حصل لك صديق أن تكثر مراعـــاته، وتبالغ في تفقده ولا تستهين باليسير من حقه عنـــد مهـــم يعرض له، أو حادث يحدث به. فأما في أوقات الرخاء فينبغي أن تلقاه بالوجه الطلـــق والخلق الرحب، وأن تظهر له في عينك وحركاتك وفي هشاشتك وارتيـــاحك عنـــد مشاهدته إياك ما يزداد به في كل يوم وكل حال ثقة بمودتك وسكونًا إليك، ويـــرى

---

[١١٥] ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ١٢٠ - ١٢١.

[١١٦] ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ١٣٠.

www.mtenback.com

السرور في جميع أعضائك التي يظهر السرور فيها إذا لقيك فإن التحفي الشديد عند طلعة الصديق لا يخفى، وسرور الشكل بالشكل أمر غير مشكل ثم ينبغي أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ويحبه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية وتثني عليهم من غير إسراف يخرج بك إلى الملق الذي يمقتك عليه، ويظهر له منك تكلف فيه، وإنما يتم لك ذلك إذا توخيت الصدق في كل ما تثني به عليه، والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توانٍ فيها بوجهٍ من الوجوه، وفي حال من الأحوال، فإن ذلك يجلب المحبة الخالصة ويكسب الثقة التامة، ويهديك محبة الغرباء ومن لا معرفة لك به»[١١٧].

واسترسل ابن مسكويه في الحديث عن آداب الصداقة وكتب فيها ما لم يكتب مثله، وهي مجموعة من الآداب الاجتماعية كان المجتمع في زمانه يقيم لها وزنًا كبيرًا وكانت قواعد تربوية يلتزمها المجتمع المتحضر في العصر العباسي، ولكنها لو عُرضت على مجتمعنا المعاصر لما أقام لها وزنًا، لأن مجتمعنا الحالي تسربت إليه أخلاق القرن العشرين وعاداته، فامّحت كثير من هذه العادات الاجتماعية، وحلّ محلها عادات غربية.

وقد ربط ابن مسكويه بين الصداقة ظاهرةً اجتماعيةً ودعوة الشريعة إلى الأنس والمحبة اللتين هما قوام الصداقة، واستنبط العلاقة بين حكمة الصلوات واجتماع الناس لها في المساجد وما يشيعه هذا الاجتماع من موجبات الصداقة، وهي لفتة في غاية الذكاء، وتحليل حقيقي لما يخلقه اجتماع الناس في أوقات الصلوات من دواعي الألفة والمحبة التي تقود إلى الصداقة، قال: «وإنما وُضع للناس بالشريعة وبالعادة الجميلة اتخاذ الدعوات والاجتماع في المآدب ليحصل لهم هذا الأنس.والشريعة إنما أوجبتْ على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات، وفضّلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ليحصل لهم هذا الأنس الطبيعي الذي هو فيهم بالقوة حتى يخرج إلى الفعل. ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة التي تجمعهم، وهذا الاجتماع في كل يوم ليس يتعذر على أهل

[١١٧] ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ١٣٤ - ١٣٥.

www.mtenback.com

كل محلة وسكة، والدليل على أن غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه أنه أوجب على أهل المدينة بأسرهم أن يجتمعوا في كل أسبوعٍ يومًا بعينه في مسجد يسعهم، ليجتمع أيضًا شمل أهل المحال والسكك في كل أسبوع كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل في كل يوم. ثم أوجب أيضًا أن يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى والرساتيق المتقاربين في كل سنةٍ مرتين في مصلى بارزين مصحرين، ليسعهم المكان، ويتجدد الأنس بين كافتهم وتشملهم المحبة الناظمة لهم، ثم أوجب بعد ذلك أن يجتمعوا في العمر كله مرة واحدة في الموضع المقدس بمكة، و لم يعين من العمر وقت مخصوص ليتسع لهم الزمان، وليجتمع أهل المدن المتباعدة كما اجتمع أهل المدينة الواحدة، ويصير حالهم في الأنس والمحبة وشمول الخير والسعادة كحال المجتمعين في كل سنة وفي كل أسبوع وفي كل يوم، فيجتمعوا بذلك إلى الأنس الطبيعي وإلى الخيرات المشتركة وتتجدد بينهم محبة الشريعة، وليكبروا الله على ما هداهم، ويغتبطوا بالدين القويم القيم الذي آلفهم على تقوى الله وطاعته»[118].

فها نحن نلاحظ إذن كيف استشف العلماء مفهوم الأنس والمحبة المؤديين إلي الصداقة، من الاجتماع في المآدب وحكمة الاجتماع في الصلوات الخمس يوميًا، والجمعة أسبوعيًا والعيدين سنويًا، والحج في العمر مرة واحدة. مراعيًا في ذلك قرب سكنى الناس من بعضهم الذي ييسر لهم الالتقاء وإقامة علاقة الود والصداقة.

وهناك صداقة العقل وهي متميزة عن الصداقة الإنسانية المعتادة، وهي فلسفة أراد التوحيدي إظهارها فيما يعرف بالصديق، فقال: «قيل لديوجانيس ألك صديق؟ قال: نعم، ولكنني قليل الطاعة له.

قيل: لعله غير ناصح لك، فلذاك أنت على ذاك.!

قال: لا، بل هو غاية في النصح، نهاية في الشفقة،

---

[118] ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ١١٧.

www.mtenback.com

قيل: فلمَ أنت على دأبك هذا المذموم، مع إقرارك بفضل صديقك ؟

قال: لأن جهلي طباع. وعلمي مكسوب، والطباع سابق، والمكسوب تابع.

قيل: فدلنا على صديقك هذا الناصح المشفق، حتى نخطب إليه صداقته، ونجتهد في الطاعة له والقبول منه.

قال: صديقي هو العقل، وهو صديقكم أيضًا، ولو أطعتموه كما ضمنتم لسعدتم ورشدتم، ونلتم مناكم في أولاكم وأخراكم.

فأما الصديق الذي هو إنسان مثلك فقلما تجده، فإن وجدتَه لم يف لك بما يفي به العقل، و لم يبلغ بك ما يبلغ العقل، وربما أتعبك وربما خَرَبك، وربما أشقاك، فاكبحوا أعنتكم عن الصديق الذي يكون من لحم ودم وعظم، فإنه يغضب فيفرط، ويرضى فيسرف ويُحسن فيعدّد، ويسيء فيحتج، ويشكك فيضل»[١١٩].

أما حديث أفلاطون عن الـ (Philia) التي هي الصداقة - في محاوراته (ليسيس Lysis) - فانه يوسع معنى الصداقة، فلا يجعلها مجرد تجانس بين أشباه، أو تجاذب بين أضداد بل يربطها بالمحبوب الأسمى الذي تنبع منه كل صلة بين الناس ألا وهو «الخير» الذي يجمع بينهم ويضم شملهم، فالصداقة، في رأيه، رابطة خلقية، أو علاقة روحية تجمع بين المواطنين الأخيار في حب واحد، وتؤلف بين قلوبهم، وتكون منهم مجتمعا سليمًا متماسكًا، ولهذا يؤكد أفلاطون قيمة الصداقة في بناء المدينة وعلاج المجتمع الفاسد، لأن ائتلاف جماعة صغيرة من الناس يشتركون في آراء واحدة يجعل منهم القلب النابض في المجتمع الجديد[١٢٠].

وينقل أرسطو عن (أنياذوقليس) أنه يقول: إن الشبيه ينجذب إلى الشبيه ومعنى ذلك أن الصداقة تماثل في الأخلاق، يعبر عن المثل القائل «إن الطيور على أشكالها

---

[١١٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٦٠ - ١٦١.

[١٢٠] زكريا، إبراهيم: مشكلة الحب، ط٢، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت. ص، ٢٠٣.

www.mtenback.com

تقع». كما ينقل عن (هيرقليطس) الذي يقول: إن الضد ينجذب إلى ضده، فالصداقة تجاذب أضداد يقوم على الاختلاف والتغاير. كما ينجذب السالب إلى الموجب وتبعًا لذلك فإن أرسطو يقسم عاطفة الصداقة إلى أنواع ثلاثة بحسب اختلاف موضوعها، فيقول:

إن هناك صداقة تقوم على المنفعة أو الفائدة، وصداقة تقوم على اللذة أو المتعة.

وهناك صداقة تقوم على الخير أو الفضيلة.

وصداقة النوع الأول هي الصداقة التي يتعلق فيها الصديق بصديقه لفائدة يرجوها منه، أو كسب يعود عليه من ورائه، ومثل هذه الصداقة تزول بزوال الباعث عليها، أو تسقط بسقوط الدافع إليها.

وأما صداقة النوع الثاني، فهي لا تكاد تختلف عن النوع الأول، اللهم إلا من حيث إن الدافع إليها هو اللذة أو المتعة لا المنفعة أو الفائدة أو الكسب وهنا يكون تعلق الصديق بصديقه مرتبطًا بأحاسيس السرور أو اللذة التي يسببها له وجوده إلى جواره، فإذا ما زالت هذه اللذة زال معها كل أثر من آثار المحبة أو الصداقة.

ولا شك أن الصديق، في هذين النوعين من الصداقة، لا يحب لذاته، بل لما يقترن به من فائدة، أو ما يجيء معه من لذة. ولما كان من طبيعة اللذة أو المنفعة أنها متقلبة متحولة. فإن الصداقة القائمة عليها لا يمكن أن تكون ثابتة مستديمة، وصداقة اللذة خاصة أنانية هوائية، خصوصًا وأنها لا تنشأ في العادة إلا بين الشباب الطائش المتهور، ومن ثم فإنها سريعة التحول سهلة الانقلاب، وهذا هو السبب في أن جنون الحب عند الشباب يمضي في العادة من موضوع إلى موضوع، دون أن يتوقف عند شخص بعينه يكون وحده محور الصداقة وموضوع الحب.

ويلخص أحد الباحثين المحدثين القول في هذا الشأن، بأن الصداقة الحقيقية، تتصف بطابع الدوام والاستمرار. وهي التي تقوم بين الأخيار، لأنهم جميعًا ينشدون موضوعًا واحدًا بعينه ألا وهو الخير. و لا يريد الصديق لصديقه إلا الخير ولا بد لمثل

www.mtenback.com

هذه الصداقة إلا أن تكون ثابتة أو دائمة، لأن الخيرية، في رأي أرسطو، تنطوي في ذاتها على مبدأ استقرار أو دوام، ولما كان الأخيار قلة نادرة فإن الصداقة الحقيقة قلما تتوافر بين الناس، اللهم إلا إذا اجتمع لشخصين من الثقة المتبادلة ما يجعل كل واحد منهما يطمئن إلى «خيرية» الآخر[١٢١].

وإذا تركنا ما عند اليونان من حديث عن الصداقة، وعند الأمم القديمة في هذا المجال والتفتنا إلى ما كتبه الغربيون في مفهوم الصداقة ألفينا كتابين أحدهما بعنوان: الصداقة والاحتفاظ بالأصدقاء، تأليف وليم منجر، والثاني: كيف تكسب الأصدقاء، لدايل كارنيغي. فقد أثار الأول أسئلة ذات مغزى محدد حول الصداقة من نحو قوله:

١ــ لِمَ نفكر في الصداقة ؟

٢ ــ ما معنى الصداقة ؟

٣ــ ماذا نفعل لو كنا نعاني مشكلات الصداقة. وعرض للصداقة وعلاقتها بالشخصية ثم الأنواع المختلفة من الأصدقاء وما نوع ما يجب أن يتجنب من الأصدقاء.

٤ــ كيف نختار الأصدقاء

أما الكتاب الثاني فكان حديثه عامًا لكسب صداقة الناس، بأن عرض لأفضل الطرق في معاملتهم، ثم كيف تحبب الناس إليك، وكيف تستميل قلوبهم وتفكيرهم، ومعرفة ما يمكن أن يسيء إلى الآخرين فيجدر بالمرء اجتنابه.

اختيار الأصدقاء:

في بعض الأحيان يجود علينا الدهر بأصدقاء لا يَدَ لنا في اختيارهم، وإنما يهيئهم لنا من غير سعي، فنلتقي بهم في منعرجات الحياة، وتجمعنا بهم صدف وظروف

[١٢١] د. إبراهيم زكريا: مشكلة الحب، ٢٠٤ - ٢٠٦.

www.mtenback.com

استثنائية، فتقوم بيننا وبينهم صداقات حميمة، تنشأ على حواشي العمل، أو على مناسبات الاغتراب، وقد تطول هذه الصداقات وتستمر آمادها فترات طويلة من الزمن.

غير أن هناك نوعًا من الصداقات تكون لنا يدٌ طولى في اختيارها، صحيح أن الظروف قد تجمعنا بأناس لا نعرفهم، ولكننا نُعجب بسلوكهم وتصرفاتهم، أو بعلمهم أو أخلاقهم، أو بمجموعة صفات وخصائص يتميزون بها، فنتمنى لو يسري إلينا مثل هذه الخصائص، فنسعى إلى التقرب منهم، والاقتباس من مزاياهم، وإذا تكرر مثل هذا التقرب قامت بيننا وبينهم صداقة، تبدأ صغيرة ثم لا تلبث أن تنمو وتتطور حتى تغدو علاقة وديّة حميمة.

ومادمنا نحن الذين ارتضّينا هذه العلاقة فما أحرانا أن نحسن اختيار أولئك الأصدقاء الذين تربطنا بهم هذه العلاقة الودية، والتي ستستمر سنوات من عمرنا بل عقودًا كثيرة إذا قُيّض لها البقاء والاستمرار.

ومن المُسلّم به أن المرء لا يضع شروطًا مسبقة للأصدقاء الذين يختارهم، وإنما تبدو هذه الشروط متوفرة ضمنيًا في الناس الذين نتعامل معهم، فمنهم من نعقد معهم صداقة للتشابه في الأخلاق، أو في الدين، أو في المستوى العلمي، أو المستوى الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو حتى في المستوى المزاجي.

وهذا التشابه في المستويات أو في بعضها هو الذي أدى إلى زرع بذور الصداقة وليس من باب الوعظ والإرشاد أن نقول: مادام الإنسان مطلق الحرية في اختيار الأصدقاء الذين قد يعاشرهم حينًا من الدهر، فما أجدره باختيار نخبة صالحة من الناس، ليضمن بوجودهم تبادل الأفكار الخيّرة، والآراء الفاضلة، لتحقق له هذه الصداقة شكلاً من أشكال السعادة.

www.mtenback.com

وأول خطوة نخطوها حين نشرع في تكوين الأصدقاء، أن نحدد الأشخاص الذين نود أن نصادقهم، ولابد أن نعرف ماحاجاتنا الشخصية ومامطالبنا؟ والشخص الذي نرشحه بصفته مثلنا الأعلى في الصداقة، هل لابد أن يكون الصديق نسخة منا ؟ ليس شرطًا أن يكون كذلك، ولكن يُستحسن أن يكون فيه من صفات الاتفاق أكثر مما فيه من صفات الاختلاف، ثم ليكن الصديق الذي نختاره من الأشخاص الأسوياء، وسنتحدث في مكان آخر عن صديق السوء وآثاره على من يصادق. ومن مزايا الصداقة الحقة أن يكون الطرفان راغبين في الصداقة. ويمكن أن نسميها صداقة وهمية إذا كانت من طرف واحد.

يقول ابن المقفع في بعض الصفات التي يجب أن تتوفر في الصديق: سواء أكان من إخوان الدين أو إخوان الدنيا: «إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراءٍ ولا حريص. وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشفوع».[١٢٢].

ولو تساءلنا ما ضرر الصديق الجاهل والكذاب لوجدناه يقول : «فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه، وإن الكذاب لا يكون أخًا صادقًا؛ لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه. وإنما سمي الصديق من الصدق، وقد يُتهَم صدق القلب، وإنْ صَدَق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان، وإن الشرير يكسبك العدو، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإن المشفوع شافعُ صاحبه».

وأكد ابن المقفع على صفات الصديق الذي ينبغي الحرص على اصطناعه فقال: لا تؤاخِ أحدًا إلا على اختيارٍ منك له، وارتضاء منك به، واتفاق منه لك، فإذا اتفق أمركما كذلك فاعلم أن كليكما يحسن ويسيء، ويصيب ويخطىء، ويحفظ ويضيع،

(١٢٢) محمد علي كردعلي: رسائل البلغاء، ص ٧٧.

www.mtenback.com

فوطِّن نفسك على الشكر إذا حفظ، وعلى الصبر إذا أضاع، وعلى المكافأة إذا أحسن، وعلى الاحتمال والمعاتبة إذا أساء، فإن معاتبة الصديق إذا أساء أحب إلى الحليم من القطيعة في معاشرة من تؤاخيه، وفي ذلك أقول شعرًا:

وَإِذا عَتَبْتَ عَلَى امْرِىءٍ أَحْبَبْتَهُ ... فَتَوَقَّ ظَاهِرَ عُتْبِهِ وَسِبَابِهِ

وَأَلِنْ جَنَاحَكَ مَا اسْتَلانَ لِوُدِّهِ ... وَأَجِبْ أَخَاكَ إِذا دَعَا لِجَوَابِهِ

واحرصْ أن تعرف موقعك من كل أحدٍ، حتى من أبيك وأمك، فإن من السخافة أن تكون لأخيك فيما يحب، واعلم أن من تنفعك صداقته ولا تضرك عداوته، الكريم الذي إن أحسنت إليه كافأك، وإن أسأت إليه عاتبك، وأما من تضرك عداوته ولا تنفعك صحبته فهو الجاهل السفيه اللئيم، وفي ذلك أقول شعرًا[١٢٣]:

مِنَ النَّاسِ مَنْ إِنْ يَرْضَ لاَ تَنْتَفِعْ بِهِ ... وَلَكِن مَتَى يَسْخَطْ فَمَا شِئْتَ مِنْ ضَرَرْ

ضَعِيفٌ عَلَى الأَعْداءِ، لَكِنَّ قَلْبَهُ ... أَشَدُّ إِذَا لاَقَى الصَّدِيقَ مِنَ الحَجَرْ

وقد حذر ابن مسكويه من أنواع من الأصدقاء السيئين الذين يحسن بالعاقل أن يجتنبهم، قال: «فينبغي لنا أن نحذر ركوب الخطر في نعمة اختيار الصديق حتى لا نقع في مودة المموهين الخداعين الذين يتصورون لنا بصورة الفضلاء الأخيار، فإذا حصلونا في شباكهم افترسونا كما تفترس السباع أكيلتها، وإذا أردنا أن نستفيد صديقًا أن نسأل عنه كيف كان في صباه مع والديه ومع إخوته وعشيرته، فإن كان صالحًا معهم فارجُ الصلاح منه، وإلا فابعد منه وإياك وإياه. ثم اعرف بعد ذلك سيرته مع أصدقائه قبلك فأضفها إلى سيرته مع إخوته وآبائه. ثم تتبع أمره في شكر من يجب عليه شكره أو كفره النعمة، ولست أعني بالشكر المكافأة التي ربما عجز عنها بالفعل... ثم

(١٢٣) صالح بن جناح: كتاب الأدب والمروءة، نقلاً عن رسائل البلغاء لمحمد كردعلي، ٣٨٥.

www.mtenback.com

انظر إلى ميله إلى الراحات وتباطئه عن الحركة التي فيها أدنى نصب، فإن هذا خلق ردىء ويتبعه الميل إلى اللذات، فيكون سببًا للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق، ثم انظر نظرًا شافيًا في محبته للذهب والفضة واستهانته بجمعهما وحرصه عليهما، فإن كثيرًا من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ويتهادون ويتناصحون، فإذا وقعت بينهم معاملة في هذين الحجرين هرَّ بعضهم على بعض هرير الكلاب، وخرجوا إلى دروب العداوة، ثم انظر في محبته للرئاسة والتقريظ، فإن من أحب الغلبة والترؤس وأن يقرّظ لا ينصفك في المودة، ولا يرضى منك بمثل ما يعطيك، ويحمله الخيلاء والتيه على الاستهانة بأصدقائه، وطلب الترفع عليهم، ولا تتم مع ذلك مودة ولا غبطة، ولابد من أن تؤول الحال بينهم إلى العداوة والأحقاد والأضغان الكثيرة. ثم انظر هل هو ممن يستهدي بالغناء واللحون وضروب اللهو واللعب وسماع المجون والمضاحيك، فإن كان كذلك فما أشغله عن مساعدات إخوانه ومواساتهم، وما أشد هربه عن مكافأة بإحسان واحتمال النصب ودخول تحت جميل. فإن وجدته بريئًا من هذه الخلال فلتحتفظ عليه، ولترغب فيه، ولتكتف بواحد إن وُجد، فإن الكمال عزيز، وأيضًا، فإن من كثرت أصدقاؤه لم يفِ بحقوقهم، واضطر إلى الإغضاء عن بعض ما يجب عليه، والتقصير في بعضه، وربما ترادفت عليه أحوال متضادة... ولا ينبغي أن يحملك ما حضضتك عليه من طلب الفضائل ممن تصادقه على تتبع صغار عيوبه، فتصير بذلك إلى أن لا يسلم لك أحد، فتبقى خلوًا من الصديق، بل يجب أن تغضي عن المعايب اليسيرة التي لا يسلم من مثلها البشر، وتنظر ما تجده في نفسك من عيب فتتحمل مثله من غيرك. واحذر عداوة من صادقته، أو خاللته أو خالطته مخالطة الصديق، واسمع قول الشاعر[١٢٤]:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ

---

[١٢٤] ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ١٣٣-١٣٤.

www.mtenback.com

فَإِنَّ الـــدَّاءَ أَكْـثَرُ مَـا تَـــرَاهُ يَكُونُ مِـــنَ الطَّعـامِ أَوِ الشَّـرابِ

وهناك صفات وشروط كثيرة في الصديق الصالح تطرق إليها الحكماء وعددهـا الشعراء، وقال الشاعر:

لا تَحْمَدَنَّ امْرَأً يُرْضِيـــكَ ظـاهِرُهُ وَاخْبَرْ مَوَدَّتَهُ فِي العُتْـبِ والغَضَـبِ

وقيل: «إذا أردت أن تعرف صاحبًا كيف يكون لك فانظر كيف كـان لمـن قبلك، فإن أحمدته فاستخلصه لك. وإن ذممته فتنكبه».

وقيل: اعتبر مافي قلب أخيك بعينه، فالعين عنوان القلب. وقيل شاهد الحـب والبغض اللحظ، فاستنطق العيون تعلم المكنون.

وقال إسحق:

سُـتورُ الضَّمـائِرِ مَهْتُوكَـةٌ إِذَا مـا تَلاَحَظَـتِ الأَعْيُـنُ

وقال ابن بسام[١٢٥]:

أَلاَ إِنَّ عَيْـنَ المَـرْءِ عُنْـوَانُ قَلْبِـهِ تُخَبِّرُ مِـنْ أَسْـرَارِهِ شـاءَ أَمْ أَبَـى

وقيل: «لاتصاحب إلا رجلاً ترجو نواله، أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه أو ترجو بركة دعائه»[١٢٦].

الصداقة والمال:

تبدو مقولة إن المال عصب حياة الإنسان وشريانها صحيحة ، وخصوصًـا أن المرحلة التي وصلت إليها الإنسانية في هذا العصر حتمت على الإنسـان المزيـد مـن الإلحـاح على الجانب الاقتصادي، وبتزايد حاجات إنسان هذا العصـر ومتطلباتـه تزايدت رغبته في امتلاك المال الذي يلبي حاجة هذا التزايد.

---

[١٢٥] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء، ٢٤٢.

[١٢٦] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص ٢٤٠ .

www.mtenback.com

ويتخذ الحصول على المال أنماطًا مختلفة يسلكها الناس، وهي كلها تحتاج لدفع قدر غير قليل من الجهد العضلي أو الفكري، وقد تتفاوت نسبة العرق المبذول للحصول على المال، غير أن قلة من الناس قعد بها الكسل وحب الراحة عن بذل أي مجهود، وظلت حاجتها الطبيعية للمال تلح عليها في طلبه فهنا تعتمد على ما في أيدي الآخرين لسد حاجاتها، ومنها القرابة والصداقة، وطموح الفقير إلى كرم الغني، والحصول على الهبات المادية دون جهد يذكر.

ويدخل في هذا الجانب الأخير عنصر الصداقة، الذي يتوخى فيه أحد المتصادقين أن يناله خير أو مال أو جاه يجلب إليه المال عن طريق صديقه الآخر، فتقوم في هذه الحالة، صداقة نفعية، ظاهرها المودة والألفة، وباطنها استمرار النفع بالمال بطرق مكشوفة تارة ومستورة تارة أخرى، وربما يكون الطرفان على علم بذلك، وربما لا يكون، وإذا كانا على علم، فانهما يقرّان به لاعتبارات الصداقة، أو لاعتبارات سياسية أو مصلحية توجب الصمت عن خلفيات هذه الصداقة، وقد يسوغ بعضهم هذا النوع من الصداقة النفعية بأنه من حق الصديق الفقير أو المعسر أن يناله شيء من فائض ما في يد صديقه الموسر. أو أنه يسوغ التماسه للمال عند صديقه بأن الزمان يوم لك ويوم عليك. فهو في حالة عسره كالمقترض من يُسر أخيه، وربما يأتي ذلك اليوم الذي يفي فيه دينه غير المكتوب لأخيه المتفضل عليه. وبالغ محمد بن علي في وجهة النظر هذه عندما رأى صديقين فقال لهما: «أيدخل أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ حاجته ؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذًا بإخوان»[١٢٧].

وسلطان المال سلطان كبير على النفس البشرية؛ لأن هذه النفس مادامت على قيد الحياة متجددة الحاجات، مستلزمة المتطلبات، ومن هنا قال الشاعر:

---

[١٢٧] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص ٢٤٦ .

www.mtenback.com

تَمُـوتُ مَـعَ المَـرْءِ حاجاتُـهُ وَتَبْقَـى لَـهُ حَاجَـةٌ مَـا بَقِـي

وحاجته الباقية المتجددة تستلزم المال، والمال ينفع صاحبه وصديق صاحبه، وقد وقف ابن المقفع عند المال في كتبه كثيرًا، وتحدث عنه طويلاً، بصفته واحدًا من مقومات الحياة ومقومات الصداقة. يقول في رسالته المسماة يتيمة السلطان: التبع والأعوان والأهل والصديق مع المال، والمروءة لا يظهرها إلا المال، لأن الفقير إذا أراد أن يتناول الأمر قعد به الفقر عما تسمو إليه همته، فانقطع عن بلوغ غايته، كما تنقطع أمطار الصيف في الأودية، فلا تصل إلى بحر ولا نهر، حتى تنشفها الريح والأرض. لأنه لا مادة لها تبلغ بها... ومن لا مال له لا شيء له، لأن الرجل إذا أصابته الحاجة رفضه إخوانه، وهان على ذوي قرابته، وربما اضطرته الحاجة وما يحتاج إليه لنفسه وعياله إلى ما يغرر فيه بدينه فعسى أن يهلك آخرته، فإذا هو قد خسر الدنيا و الآخرة... فلا شيء أشد من الفقر، وهو رأس كل بلاء، وداعٍ لصاحبه إلى مقت الناس، وهو مسلبة للعقل، ومدهشة للفطنة، ومنقصة للمروءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومظنة للتهمة، ومقطعة للحياة ومجمعة للبلاء... والرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا وأساء به الظن من كان ظنه به حسنًا، فإن أذنب غيره ظنوه به، وصار للتهمة موضعًا، وليست من خلة تكون للغني مدحًا إلا وهي للفقير عيبًا، فإن كان شجاعًا سُمي أهوج، وإن كان جوادًا سمي مفسدًا وإن كان حليمًا سُمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمي بليدًا، وإن كان لسنًا سمي مهذارًا وإن كان صموتًا سمي عييًا[١٢٨].

وفي هذا المعنى قال الشاعر[١٢٩]:

إِذَا قَلَّ مَالُ المَرْءِ قَلَّ صَدِيقُهُ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ أَرْضُهُ وَسَمَاؤُهُ

---

[١٢٨] كردعلي علي، محمد: رسائل البلغاء، يتيمة السلطان لابن المقفع، ١٥٩ .

[١٢٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٤٦.

www.mtenback.com

وقال الشاعر الآخر أيضاً[١٣٠]:

صَدِيقُكَ حِينَ تَسْتَغْنِي كَثِيرٌ وَمَالَكَ عِنْدَ فَقْرِكَ مِنْ صَدِيقِ

وإقبال الناس على الإنسان في حالة غناه وإدبارهم عنه في حالة فقره ظاهرة معروفة، في كل زمان ومكان. ولكن ردود فعل الأشخاص مختلفة حولها، فهذا رجل يقرها ولا يرى فيها بأسًا، وذاك رجل يستنكرها، ويكره الأصدقاء الذين يهجرون أصدقاءهم عند الفقر بعد إقبالهم عليهم عند الغنى. يمثّل النوع الأول يحيى بن طلحة الذي قالت له زوجته: «أما ترى أصحابك إذا أيسرتَ لزموك، وإذا أعسرتَ تركوك؟! فقال: «هذا من كرمهم، يأتوننا في حال القوة منا على الإحسان إليهم، ويتركوننا في الضعف عنهم».

أما ردود فعل الأكثرين من الناس أنهم لا يرتاحون لتبدل الوضع المالي للصديق، فصديقك يتصنع لك المحبة والوفاء مادامت الدنيا مقبلة عليك، فإذا قلب لك الدهر ظهر المجن هجرك إن لم نقل انقلب عليك. وقد وصف هذه الحالة رجلٌ من تميم، قال[١٣١]:

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تُنْكِرُهُ مَادُمْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ

فَإِذَا عَدَا - وَالدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ - دَهْرٌ عَلَيْكَ، عَدَا مَعَ الدَّهْرِ

فَارْفُضْ بِإِجْمَالٍ مَوَدَّةَ مَنْ يَقْلِي المُقِلَّ، وَيَعْشَقُ المُثْرِي

وَعَلَيْكَ مَنْ حَالاهُ وَاحِدَةٌ فِي العُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَاليُسْرِ

ووصف شاعر آخر حال صديق له أكثر تملقًا ونفاقًا فهو لا يقترب منك - إذا اغتنيت - فحسب، بل يأتيك بلين القول، ويكيل لك الثناء العاطر، ويعرض

---

[١٣٠] المصدر نفسه، ٣٥٩.

[١٣١] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٧٤.

www.mtenback.com

لك بقرابته منك، وهو يعلم أن صنيعه هذا ملق ونفاق وتودد ظاهر ينطوي على عداوة باطنة. قال هذا الشاعر[١٣٢]:

إِذَا افْتَقَرْتَ، نَأى وَاسْتَدَّ جانِبُهُ ... وَإِنْ رآكَ غَنِيًّا لانَ واقْتَرَبا

وَإِن أَتاكَ لِمالٍ، أَوْ لِتَنْصُرَه ... أَثْنَى عَلَيْكَ الَّذي يَهْوى، وَإِنْ كَذَبا

مُدْلي القَرابَةِ عِنْدَ النَيْلِ يَطْلُبُهُ ... وَهُوَ البَعِيدُ إِذا نالَ الَّذي طَلَبا

حُلْوُ اللِّسانِ، بَعِيدُ القَلْبِ مُشْتَمِلٌ ... عَلى العَداوَةِ لابْنِ العَمِّ ما اصْطَحَبا

وقيل لبعض الفضلاء: كم لك من صديق؟ قال: لا أعلم ، لأن الدنيا مقبلة عليّ، والأموال موجودة لديّ، وإنما أعرف ذلك لو ولّت الدنيا»[١٣٣].

ولو تصفحنا آراء الشعراء والأدباء في هذه الثنائية: الصداقة والمال، لوجدنا الآراء مختلفة متفاوتة، يصل بعضها إلى حد الأنانية، وتلبس في ظاهرها ثوب الحكمة. قال منصور[١٣٤]:

إِذَا رَأَيْتَ امْرَأً فِي حَالِ عُسْرَتِهِ ... صَافِي المَوَدَةِ مَافِي وُدِّهِ دَغَلُ

فَلا تَمَنَّ لَهُ حالاً يُسَرُّ بِها ... فَإِنَّهُ بِانْتِقالِ الدَّهْرِ يَنْتَقِلُ

ويظل الجانب المادي من أهم عناصر الصداقة، يجمع الأصدقاء ويفرّقهم، وهو في الجمع والتفريق يكشف عن طبائعهم وخصائصهم النفسية والسلوكية، يروى أن شيخًا فقيهًا كانت له جلسة يومية في منزله يجتمع فيها طلابه ومريدوه ويتحلقون حوله، وهو يقرأ لهم ويفسّر ويشرح، وكان في منزله قطان صغيران اعتادا أن يجلسا

---

[١٣٢] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٨٨.

[١٣٣] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص ٢٤٨.

[١٦٣] المصدر نفسه، ٢٤٧.

[١٣٤] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٢٤٧.

www.mtenback.com

بهدوء تام أمامه وهو يشرح دروسه. ويتمددان بكل أدب على مرأى تلاميذه فلفت ذلك نظر الطلاب، ودفع الفضول أحدهم أن يسأل شيخه فقال: ما أحسن أخوة هذين الهرّين، فأخذ الشيخ لقمة خبز ورماها بينهما، فانطلق الهران من هدوئهما وتسابقا على لقمة العيش ورغب كل واحد منهما أن يحوزها لنفسه، فنشب بينهما صراع بالمخالب، فقطع الشيخ محاضرته، والتفت إلى طلابه الذين أراد أن يعطيهم درسًا واقعيًا، فقال: أرأيتم كيف أفسدت بينهما الدنيا ؟ أراد أن يلقن طلابه درسًا أن الدنيا وأسبابها مهما كانت تافهة تفسد أخوة الأخوين وتنزع عنهما قناعهما المصطنع، وتعيدهما إلى طبائعهما التي فُطِرا عليها، وتكشف عن غرائزهما الدفينة والمستكنّة تحت ثوب من التربية المفتعلة، والسلوك المروّض فتأتي الدنيا وعمادها المال وهو أوكد وسائل العيش، فتكشف عن هذا المخبوء في طيات الشخصية الهادئة. انظر ماذا قال الشاعر[١٣٥]:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَوَدُّكَ حَقًّا ... صَافِي الوُدِّ، لَيْسَ بِالتَّكْدِيرِ

فَإِذا ما سَأَلْتَهُ دَفْعَ فَلْسٍ ... أَلْحَقَ الوُدَّ بِاللَّطِيفِ الخَبِيرِ

تماما كما قال الشاعر الآخر:

عَجِبْتُ لِبَعْضِ النَّاسِ يَبْذُلُ وُدَّهُ ... وَيَمْنَعُ ما ضُمَّتْ عَلَيْهِ الأَصابِعُ

الصداقة والسلطة:

مفهوم السلطة واسع يبدأ بالحاكم وينتهي برب الأسرة الذي أعطي القوامة على الزوجة والأولاد. ويمر مفهوم السلطة بالوزير والأمير والقائد ومدير المؤسسة ومحافظ المنطقة. وحتى العلاقة بين الضابط وجنوده، والمعلم وطلابه، وصاحب

[١٣٥] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٢٢ .

www.mtenback.com

المصنع، ومالك الأرض كل هؤلاء يمارسون نوعًا من أنواع السلطة على شريحة العاملين معهم أو المتعاملين وإياهم. وطبيعي أن يقوم نوع من الصداقة بين أفراد هذه المعدودات، وطبيعي أن يطمح المحكوم إلى مصادقة الحاكم، وأن يتمنى المرؤوس أن يوده الرئيس، لأن الرئيس قد يجري على المرؤوس - من جراء هذه الصداقة المعقودة بينهما - شيئًا من الخير، أو يدفع عنه شيئًا من الشر، ولذلك رغب الناس في مصادقة أهل السلطة، وإن كانت في بعض الأحيان محفوفة بالمخاطر، لأن صاحب السلطة ليس كالصديق العادي الذي تعاتبه وتلومه وتهجره، وأحيانًا تشهّر به وتكشف عيوبه وتتهمه في أخلاقه، فلو عملت شيئًا من هذا مع ذوي السلطة لنالك مكروه كبير، ولذلك نصح المفكرون بالتعامل بالرفق مع أهل السلطة رفقًا مشوبًا بالحذر، لكيلا يتعرض المرء لسطوة السلطان. وقد يكون صديقك من مستواك المادي والاجتماعي والثقافي، ثم يجود عليه الدهر بأن يمنحه السلطة و الإمارة ، فوطّن نفسك على تغيّره عليك، وخذ بقول الشاعر:

وَكُلُّ إِمارَةٍ عَمَّا قَلِيلٍ ... مُغَيِّرَةُ الصَّدِيقِ عَلَى الصَّدِيقِ

وقد تجرأ بعضهم فلبس ثوب الواعظ وقدّم لهذا الصديق الذي أصبح أميرًا بعض المواعظ فقال:

إِذا نِلْتَ الإمارَةَ فَاسْمُ فِيها ... إِلي العَلَيَاءِ بِالحَسَبِ الوَمِيقِ

وَلاَ تَكُ عِنْدَها حُلْوًا فَتُجْنَى ... وَ لا مُرًّا فَتَنْشَبَ في الحُلُوقِ

وتواترت في كتب الأدب صفات الملوك بأنهم لا يقيمون وزنًا كبيرًا للصداقة، فقد قال أبو سليمان المنطقي الوزير: «فأما الملوك فقد جلوا عن الصداقة، ولذلك لاتصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية

www.mtenback.com

الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم، لانتشابهم بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويرد عليهم»[١٣٦].

على أننا نرى أن هذا التصرف من الملوك طبيعي، لأن الملوك لا يستطيعون أن يصادقوا القاصي والداني، مع حاجتهم إلى مثل هذه المصادقة، لأنه ليس بطوقهم التودد إلى كل الناس، ولا تسمح لهم ظروفهم التي تستغرقها إدارة شؤون الدولة. فهم ينصرفون إلى عظائم الأمور ولا يلتفتون إلى صغائرها.

ومثل ذلك قاله ابن المقفع: إن الملوك لا عهد لهم ولا ذمام، ولا صديق لهم ولا حميم ، ولا يحبون أحدًا ولا يكرمونه، إلا أن يكون لهم إليه حاجة، فيقربونه عند ذلك ويكرمونه[١٣٧].

الصداقة والعقل

يكاد يجمع علماء النفس وعلماء الاجتماع أنه ما من صداقة بين شخصين إلا وفيها شيء من الجانب النفعي، ولا يعنون به دائمًا الجانب المادي أو الاقتصادي، وإنما قد يكون في الصداقة نفعٌ معنويٌ، كالانتفاع العلمي من مصادقة العالم، والانتفاع الثقافي من مصادقة المثقف، والانتفاع الديني من مصادقة المتدين، وحتى الانتفاع الفني من مصادقة الفنان. وقد تكون هذه المنافع ذات مردود مادي أو لا تكون.

وفي كل هذه المنافع يلعب العقل دورًا كبيرًا في اختيار الصديق. قد تقوم الصداقة بشكل عفوي وفطري كبير ولكن الصداقة التي لا تقوم على أسس عقلية سرعان ما تنهار، كالصداقات القائمة على الهوى والميول العاطفية، التي قد تستمر إلى حين إشباع الهوى أو إرواء الميول العاطفية، وربما تستمر مدة تأجج الميول العاطفية ثم

---

[١٣٦] أبو حيان التوحيدي:الصداقة والصديق، ٦/٥

[١٣٧] ابن المقفع: رسائل البلغاء. يتيمة السلطان، ١٦٧ .

www.mtenback.com

تنحرف عقلية أو تضمحل، أمّا الميول العقلية بين المتصادقين فهي أدوم الميول وأبقاها، وأنزهها عن المنافع المادية الصرف، ولذلك حض العلماء على مصادقة العقلاء، وعبارتهم في ذلك مشهورة: «عدو عاقل خير من صديق جاهل» وقيل: «جالس العقلاء أعداء كانوا أو أصدقاء، فالعقل يقع على العقل»[١٣٨]. وقد صاغ ذلك شعرًا صالح بن عبدالقدوس وهو يوصي ابنه، فقال[١٣٩]:

عَدُوُّكَ ذُو العَقْلِ أَبْقى عَلَيْكَ ... مِنْ الصَّاحِبِ الجاهِلِ الأَخْرَقِ

وَذُو العَقْلِ يَأْتِي جَمِيلَ الأُمُو ... رِ، وَذِي خَلَّةُ الأَرْشَدِ الأَوْفَقِ

وجعلوا محادثة الرجال ذوي العقول من لذائذ الدنيا، فقال شاعرهم[١٤٠]:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذاتِ إلا ... مُحَادَثَةُ الرِّجَالِ ذَوِي الْعُقُولِ

وَقَدْ كانُوا إذا عُدُّوا قَلِيلاً ... فَقَدْ صَارُوا أَقَلَّ مِنَ القَلِيلِ

ومن هنا أخذ عمر الخيام حكمته في الرباعيات (ترجمة أحمد رامي) فقال:

عاشِرْ مِنَ النَّاسِ كِبارَ العُقولِ ... وَجانِبِ الجُهَّالَ أَهْلَ الفُضولِ

وَاشْرَبْ نَقِيعَ السُّمِّ مِنْ عاقِلٍ ... وَاسْكُبْ عَلى الأَرْضِ دَوَاءَ الجَهُولِ

وابن المقفع يقيم وزنًا كبيرًا للعقل، ويجعله أحد الأسس التي يدير عليها كتاباته، وفي يتيمة السلطان يوصي الإنسان بمصاحبة العاقل فيقول: «اصحب العاقل الحسن الخلق، واسترسل إليه، وإياك وفراقه، ولا عليك أن تصحب ذا العقل، وإن كان غير محمود الخليقة والكرم، فاحترس من سيّئ أخلاقه، وانتفع بعقله، ولا تذم مواصلة الكريم وإن لم تحمد عقله. ولكن انتفع بكرمه وضن بعقلك، وفرّ كل الفرار من اللئيم

---

[١٣٨] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص ٢٤١ .

[١٣٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ١٥ .

[١٤٠] المصدر نفسه، ١٠٥.

www.mtenback.com

الأحمق»[١٤١]. وكثر حديث ابن المقفع عن العقل والعاقل. فمن جميل ما قال: «لا يغفلنّ العاقل عن التماس علم ما في نفس أهله وإخوانه وأقاربه وولده عند كل حادث من الأمر في كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود وعلى كل حال، فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب، وقد قال العلماء: «إذا دخلت قلب الصديق من صديقه ريبةٌ فليأخذ بالحزم في التحفظ برفق، فإن كان الذي ظنّ ظفر بالحزم والأمن وإن كان باطلاً لم يضره ذلك»[١٤٢].

وأكدت الشعراء مصادقة العاقل، قال أحدهم[١٤٣]:

إِذَا مَا كُنْتَ مُتَّخِذًا خَلِيلاً ... فَلا تَثِقَنَّ بِكُلِّ أَخِي إِخَاءِ

وَإِنْ خُيِّرْتَ بَيْنَهُمُ فَأَلْصِقْ ... بِأَهْلِ العَقْلِ مِنْهُمْ والحَيَاءِ

فَإِنَّ العَقْلَ لَيْسَ لَهُ إِذا مَا ... تَفَاضَلَتِ الفَضَائِلُ مِنْ كِفَاءِ

وقال الأدباء: العقل أمير والأدب وزير. وقال الشاعر:

وَقَدْ يُصْلِحُ التَّأْدِيبُ مَنْ كَانَ عَاقِلاً ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلٌ فَلَنْ يَنْفَعَ الأَدَبْ

وقال ابن المقفع في معرض الحديث عن العقل والصداقة: «تحرّز من سُكر السلطة وسكر المال وسكر العلم وسكر المنزلة وسكر الشباب، فإنه ليس من شيء إلا وهو ريح جنة تسلب العقل، وتذهب الوقار، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع. واعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة، وأن تفرُّشك لهم يكسبك صديق السوء، وفسولة الأصدقاء أضرُّ من بغض الأعداء، فإنك إن واصلتَ صديق السوء أعيتك جرائره وإن قطعته شانك اسم القطيعة، وألزمك ذلك من يرفع عيبك،

---

[١٤١] ابن المقفع: رسائل البلغاء، يتيمة السلطان، ١٥٨.

[١٤٢] ابن المقفع: رسائل البلغاء، يتيمة السلطان، ١٦٦.

[١٤٣] الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين ١/ ٢٤٤، تحقيق: عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٩٤٩م).

www.mtenback.com

ولا ينشر عذرك، فإن المعايب تنمى، والمعاذير لا تنمى. البس للناس لباسين، ليس للعاقل بدٌّ منهما، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما؛ لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة، فلا تُلْفَيَنَّ إلا متحفظًا متشددًا متحرزًا مستعدًا. ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقات فتتلقاهم ببنات صدرك، وتفضي إليهم بموضوع حديثك، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ بينك وبينهم. وأهل هذه الطبقة، الذين هم أهلها قليل من قليل حقًا، لأن ذا الرأي لا يدخل أحدًا من نفسه هذا المُدخَل إلا بعد الاختبار والسبر، والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد»[١٤٤].

وقال الشاعر العربي في قيمة العقل[١٤٥]:

وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ الخَيْرَاتِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ

الصداقة والعُزلة:

الإنسان اجتماعي بالطبع، وهذا يعني أنه مدفوع بحكم طبعه وغريزته إلى تكوين خلايا اجتماعية أصغرها صداقته لإنسان أو مجموعة من الناس، وهذا لا يتعارض مع تكوين البنية الأساسية لوضعه الاجتماعي الفطري الذي هو الأسرة المكونة من الأبوين والأولاد.

والصداقة تتخذ أشكالاً كثيرة، وتتسم العلاقات بين الصديقين بصور شتى، بعضها إيجابي وبعضها سلبي، ومرد ذلك إلى طبيعة المتصَادِقَيْن ونوازعهما، ومن هنا تفاوتت نظرات الأصدقاء إلى العلاقات التي يقيمونها، فبعضهم يكتفي بالصديق الواحد أو الاثنين أو الثلاثة، وبعضهم عنده من انفتاحية السلوك ما يجعله يستكثر من

---

[١٤٤] ابن المقفع: الأدب الكبير، ٧٨.

[١٤٥] صالح بن جناح: رسائل البلغاء، كتاب الأدب والمروءة، ٣٨٦.

www.mtenback.com

الأصدقاء، فيكوّن صداقات في العمل بينه وبين مجموعة من يتعامل معهم من الذكور والإناث ، كما يكوّن صداقات لساعات اللهو والمتعة. صداقات داخل الوطن، وأخرى خارجه، صداقات من أبناء جنسه، وأخرى من أجانب يتعرف عليهم، ولا يرى بأسًا، بل يجد لذة، في استحداث صداقات جديدة، وهي صداقات أقل ما توصف به أنها عرضية عابرة اقتضتها طبيعة العمل أو المصلحة، لا تلبث أن تتلاشى بمرور الزمن طال أو قصر وهناك من الشعراء من يدعو إلى الاستكثار من الأصدقاء، لأنهم يكوّنون دعامة لصديقهم. ومن هؤلاء الشعراء الإمام الشافعي يقول[١٤٦]:

وَأَكْثِرْ مِنَ الإِخْوانِ مَا اسْطَعْتَ،إِنَّهُمْ ... بُطُونٌ إذا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُورُ

وَلَيْسَ كَثِيرًا أَلْفُ خِلٍّ وَصَاحِبٍ ... وَإِنَّ عَدُوًّا واحِدًا لَكَثِيْرُ

وهذا ينسجم مع حال رجل فقيه كالإمام الشافعي الذي يأخذ بقول الرسول ﷺ: «المؤمن مألفة». وهو صاحب مذهب يريد أن يجمع حوله التلاميذ والمريدين، والإمام بطبعه نزاع إلى المودة، بعيد عن حب العداوة، فيرى أن العمر أقصر من أن ننفقه في العداوات، ويناقضه في وجهة النظر هذه ابن الرومي الذي يرى أن كثرة الأصدقاء غثاء، ولقليلٌ مخلصٌ ودود خيرٌ من كثير مملول. فقال:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ ... فَلاَ تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاه ... يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

وَدَعْ مِنْكَ الكَثِيْرَ، فَكَمْ كَثِيرٍ ... يُعَافُ، وَكَمْ قَلِيْلٍ مُسْتَطَابِ

والذين يدعون إلى التقليل من الأصدقاء يخشون على الصديق ألا يستطيع القيام بحقوقهم جميعًا، فلذلك يوغر صدور بعض على بعض للغيرة، فينقلبون أعداء بعد أن

---

[١٤٦] الشافعي: شعر الإمام الشافعي وأدبه، ٣٨، ويُنسب البيتان لمحمود الوراق ولعلي بن أبي طالب ولابن الرومي.

www.mtenback.com

كانوا أصدقاء، وهذا معنى قول ابن الرومي عدوك من صديقك مستفاد، ومعنى قول الشاعر[١٤٧]:

إذا اتَّسَعَ الإِخَـــاءُ عَـــرَتْ حُقُـــوقٌ ... مُراعيهـــا مُقيـــمٌ في مَضيـــــــقِ
فَإِنْ خَصَّـــــتْ رِعَايَتُـــهُ فَرِيقـــــاً ... أَخَلَّ بِمـــــا عَلَيْـــــــهِ في فَرِيـــقِ
وَإِنْ رامَ القِيَـــامَ لَهُـــمْ جَميعـــــاً ... بِشَرْطِ الوُدِّ لَـــمْ يَـــكُ بِالْمُطِيـــــقِ
وَأَوْحَـــشَ بَعْضَهُـــم فَـــأُفِيْدَ منْـــهُ ... عَدَوًّا، كان مـــــن عَـــدَدِ الصَّدِيـــقِ
فَخُـــذْ مِمَّـــا تُؤاخِيـــــهِ بِقَصْـــــدٍ ... وَقَـــدِّرْ فَتْـــحَ أَبْـــوابِ الحُقُـــــوقِ

إزاء هذا النوع الذي يؤثر كثرة الأصدقاء، هناك نوع آخر لا يريد أصدقاء البتة. ومذهبه اعتزال الناس آخذين بفحوى قول الرسول ﷺ: «إن الله يحب الأبرار الأتقيـــاء زيارة الأخفياء، الذين إذا غابوا، لم يفتقدوا وإن حضروا لم يُدعَوا ولم يُعرفـــوا، قلوبهـــم مصابيح الهُدى. يخرجون من كُلِّ غبراء مظلمة»[١٤٨].

يروى أن جميل بن مرة لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة، وعوتب في ذلك فقال: «لقد صحبت الناس أربعين سنة، فما رأيتهم غفروا لي ذنبـــا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا بي عثرةً، ولا رحموا لي عـــبرة، ولا قبلوا مني معذرة، ولا فكوني من أسرة، ولا جبروا لي مـــن كســـرة، ولا بذلـــوا لي نصـــرة، ورأيت الشغل بهم تضييعًا للحياة، وتباعدًا من الله تعالى، وتجرعًا للغيظ مـــع الساعات، وتسليطًا للهوى في الهنات بعد الهنات»[١٤٩].

ومن الشعر في الدعوة إلى الوحدة قول الشاعر:

---

[١٤٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٤٠٤.

[١٤٨] سنن ابن ماجه، رقم ٣٩٨٩.

[١٤٩] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٠-١١.

www.mtenback.com

كُـنْ لِثَغْـرِ البَيْـتِ حِلْسـًا وارْضَ بِـالوَحْدَةِ أُنْسَـا
وَاغْـرِسِ النَّـاسَ بِـأَرْضِ الزُّهْـ ـدِ – مـا عُمِّرْتَ – غَرْسَـا
لَسْـتَ بِـالوَاجِدِ حُـرًّا أَوْ تَـرُدَّ اليَـوْمَ أَمْسَـا

ربما نلتمس العذر لدعوة هذا الشاعر الناس للعزلة، وهو أن أهل زمانه فسدوا لدرجة أنك لا تجد بينهم صديقًا ولا شبيهًا بالصديق، ولكن أن يعمم ذلك على كل زمان، وعلى كل أناس، فتلك فكرة مرفوضة.

صداقة الكتاب:

صداقة الإنسان للإنسان أمر لا خلاف عليه ولا جدال فيه، غير أنه يُوْجد نوع غريب من الصداقة قوامها الإنسان وشيء آخر غير الإنسان. أحد طرفيها البشر، ولكن الطرف الثاني قد يكون الحيوان أو النبات أو حتى الأشياء الجامدة التي لا روح فيها ولا نفْس لها، وإن كانت الصداقة التي جرى العرف على أنها تبادلية بين من يعقل من البشر، فإن ذلك لا يمنع من أن ينسحب معنى الصداقة جوازًا على أشياء يرتاح لها الإنسان ويسعد بها وبوجودها مثلما يسعد بوجود الإنسان وصداقته منها الصداقات التي تقوم بين إنسان وبعض أنواع الطيور التي تُقتنى للمتعة، ومثلها أسماك الزينة، وقد تضخمت الصداقة عند بعض الأمم حتى وصلت إلى تقديس بعض الحيوانات، كتقديس الهنود للبقرة ولكن هذا موضوع خارج عن نطاق الصداقة. وقد تقوم الصداقة بين الإنسان والنبات، ومنها نباتات الزينة.

ومن صداقات الأشياء الجامدة تعلق بعض الناس بالسيارة، وتعلق الأطفال بالدراجة، أو تعلقهم بأشياء أخرى تصل بهم إلى حد الممارسة اليومية والإدمان، ومن هذه الصداقة الغريبة صداقة المكان الذي يرتبط به الإنسان ببعض الحب أو المنفعة فيداوم التردد عليه، ويلحق بذلك الأماكن المقدسة. والمساجد كالذين تتعلق قلوبهم بالمساجد.

www.mtenback.com

ولكن الصداقة التي أردنا الوصول إليها الآن هي صداقة الكتاب، وهي صداقة ليست مشروعة ومحببة فقط، بل تلبي حاجات كثيرةً عند بعض الناس؛ كإشباع النهم إلى القراءة و التثقيف الذاتي، والاعتزال عن المجتمع الذي فسدت فيه الصداقات، وأصبحت عبئًا ثقيلاً على المتصادقين: وهذا مصداق ما قاله أحدهم عندما سئل: أعندك شيء تستأنس به؟ فقال: نعم. مصحف. وأفضل ما قيل في هذا الباب قول أبي الطيب:

أَعَزُّ مكانٍ في الدُنا سَرْجُ سَابحٍ ... وخير جَليسٍ في الزمانِ كتابُ

ووجد أبو الحسن الجرجاني لذته في معاشرة الكتاب لا في معاشرة الناس فقال:

ما تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ العَيْشِ حَتَّى ... صِرْتُ فِي وَحْدَتِي لِكُتْبِي جَلِيسا

لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ يُعادِلُ نَفْسِي ... لا، فَلا أَبْتَغِي سِواها أَنِيسا

إِنَّمَا الذُّلُّ فِي مُداخَلَةِ النَّاسِ ... فَدَعْهَا، وَعِشْ كَرِيمًا رَئِيسا

وهذا شاعر آخر يحاور صديقه الذي يلومه على انفراده عن الناس ووحدته عنهم، فيصوب رأيه بأن مجالسة الكتب نعمت المجالسة فأنشد ابن الظافر هذا الحوار:

وَلاحٍ لَحانِي عَلَى وَحْدَتِي ... وَأَطْنَبَ فِي لَوْمِهِ الجَاهِلُ

وَقَالَ: أَمَا يُوحِشَنْكَ المقامُ ... وَحِيدًا، وَأَنْتَ الفَتَى العَاقِلُ

وَقَدْ قِيلَ: مَنْ لاَزَمَ الانفرا ... دَ مات، ولا عنده طائل

فقلت له: تُهت عما أردت ... وفاتك قصدي يا عاذل

وَفِي كُتُبٍ لِيَ نِعْمَ الأَنِيسُ ... وَنِعْمَ المُحَدِّثُ وَالقَائِلُ

تَجِدُّ إِذا شِئتَ جِدَّ الحديـ ... ـثِ وَتَهْزَلُ إِنْ فَاتَكَ الهَازِلُ

فما دامت الكتب قد جمعت النقيض: من الجدِّ والهزل، فكثير من يحمل نفسه على طلب العزلة، قال شاعر:

www.mtenback.com

فَطُوبَى لِمُسْتَجْلِسٍ بَيْتُهُ قَنُوْع، لَهُ بُلْغَةٌ كَافِيَهْ
نَدامَاه دُوْنَ الوَرَى كُتْبُهُ فَلاَ إِثْمَ فِيْهَا وَلاَ لاغِيَهْ
فَمِنْ شَرِّهِ النَّاسُ في نَجْوَةٍ وَمِنْ شَرِّهِمْ نَفْسُهُ ناجِيَهْ

الصداقة والملل والهجر:

بين العشق والصداقة وجوه شبه منها أن كليهما يقوم بين اثنين أو أكثر وأنهما يبدآن عرضًا أو مصادفة، ثم يتعمقان بالرعاية ومر الزمان، وأنهما يمران برحلة الازدهار وبلوغ القمة، وأنهما قد ينتهيان إلى مرحلة الفتور والتراخي. وهذه المرحلة يبدأ منشؤها بسأم أحد الطرفين، بخيبة أمله في الطرف الآخر، أو ليأسه مما كان يتوقعه منه فيبدأ الخط البياني للعلاقة بينهما يميل، ويشعر الطرف الآخر فيحاول تلافي الأمر، ولكن جسور الصداقة أو المحبة قد تآكلت إن لم نقل قد تهدمت، ويتوقف ترميمها على رضا الطرفين، وتعزيز العلاقة. وإلاّ فالصلة آيلة إلى الانتهاء.

وعلامات الملل قلة التزاور، والتعلل بالأعذار وكثرة الانشغال، ووضع اللوم في فتور العلاقة على الطرف الآخر، ولهذا قال الشاعر:

إِذَا كَثُرَ التَّجَنِّي مِنْ خَلِيْلٍ بلا ذَنْبٍ فَقَدْ مَلَّ الْخَلِيلُ

وأحيانًا تكون كثرة الإدلال سببًا للملل، وهذا شيءٌ تنبه له الناس منذ القديم فقالوا: ما آفة الملال؟ قالوا: كثرة الإدلال، وقالوا: أدلّ فأمل[١٥٠].

وقد يكتشف أحد الصديقين - بعد طول معرفة - أن صديقه ثقيل الظل، فيجفوه ويمله. وفي هذا قال الشاعر:

أَتَعْجَبُ إِنْ جَفَاكَ أَخٌ لِغَيْرِكَ عَنْهُ مُنْتَقَلُ
فَلاَ تَعْجَبْ لِجَفْوَتِهِ ثَقُلْتَ، فَمَلَّكَ الرَّجُلُ

[١٥٠] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٣٢٨،

www.mtenback.com

فكون أحد الصديقين ثقيل الظل، فهذا داعية كبيرة للملل، أما الخليل الحق الدائم الوصال فلا يُمَلّ. وإذا اختلفت مشارب الصديقين، فإن أحدهم إذا مل لم يصبر على الملل من صديقه، وإنما يعمد إلى بيعه بسوق الرخص. والأبيات التالية تصور ذلك[١٥١]:

وَلَمَّا رَأَيْتُكَ لا صاحِبًا ... تَقِيًّا، وَلا أَنْتَ بِالعَابِدِ

وَلاذو العَداوةِ بِالْمُتَّقِي ... كَ، وَلا ذُو الصَّدَاقَةِ بِالْحَامِدِ

دَخَلْتُ بِكَ السّوقَ سُوقَ الرَّقِي ... قِ، وَنَادَيْتُ: هَلْ فِيكَ مِنْ زَايِدٍ؟

فَمَا إِنْ رَأَيْتُ سِوى وَاحِدٍ ... يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ وَاحِدِ

فَبِعْتُكَ مِنْهُ بِلا شَاهِدٍ ... مَخَافَةَ رَدِّكَ بِالشَّاهِدِ

وَأُبْتُ إِلى مَنْزِلي حَامِدًا ... وَعَادَ البَلاءُ عَلَى النَّاقِدِ

وبعض الأصدقاء يظهر لصديقه كرم الأخلاق، فلا يتسرع ببيعه لأول هفوة هفاها، وإنما يعاتبه بغية إصلاحه، وفي هذا يقول الشاعر[١٥٢]:

وَمِنْ شِيمَتِي أَنِي إِذَا المَرْءُ مَلَّنِي ... وَأَظْهَرَ إِعْرَاضًا وَمَالَ إِلى الغَدْرِ

أَطَلْتُ لَهُ فِيما يُحِبُّ عِتَابَهُ ... وَفَارَقْتُهُ فِي حُسْنِ مَسٍّ وفي سِتْرِ

ويرى بعض الناس أن الملل بين الصديقين مرض لا علاج له. تلمح ذلك من أبيات قالها ابن عروس، منها[١٥٣]:

يَافتىً، كَانَتْ بِهِ دُنْيَا ... يَ تَصْفُو وَتَطِيبُ

---

[١٥١] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٣٤ .

[١٥٢] د. عز الدين فراج: فن الصداقة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت. ٦٤.

[١٥٣] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٢٦/٢٢٥ .

www.mtenback.com

فِيمَ إِعْراضُك عَنِّي أَيُّها الحُرُّ اللَّبِيبُ ؟
أَمَلالاً، فَهْوَ ما لَيْ ـسْ يُداوِيهِ الطَّبِيبُ ؟
أَمْ لِظَنٍّ ؟ فَامْتَحِنْ فَالظَّنُّ يُخْطِي وَيُصِيبُ
أَمْ لِذَنْبٍ ؟ فَلَكَ اللـ ـهُ بِأَنِّي سَأَتُوبُ

وإذا تمادى الصديقان بالملل أدى ذلك إلى الهجر والقطيعة، وكان العرب يقولون: ما يدعو المحب إلى الهجر؟ قالوا: إدمان المحبوب للعذر.

وحسب الصديق أن يعلم أنه إذا كان في صديقك عيب يحملك على هجره، أو سوأة تحملك على قطيعته، فتذكّر له حسنةً تحملك على وصاله واستمرار مودتك لـه. قال ذاك الصديق[١٥٤]:

أَخٌ لِي كَأَيَّامِ الْحَيَاةِ إِخَاؤُهُ يُلَوِّنُ أَلْوَانًا عَلَيَّ خُطوبُها
إِذا عِبْتُ مِنْهُ خَلَّةً فَهَجَرْتُهُ دَعَتْنِي إِلَيْهِ خَلَّةٌ لا أَعِيبُها

تبدل الصديق

يمكن أن تقسم ميول النفس البشرية إلى ثلاثة أقسام:

الأول، ما كثرت فيه التراكمات الخيِّرة، والنزعات المهذّبة، وهذه تجعل نفس حاملها نفسًا خيرة ذات خلق كريم، لا تصدر عنها إلا أفعال الخير.

والثاني ما كثرت فيه التراكمات الشريرة، ونزعات التسلط والصدامية، وهذه تجنح بحاملها إلى الشر، ولا تبحث إلا عن مصالحها ومنافعها ولذائذها.

والثالث ما توازنت فيه نوازع الخير والشر، فكان حامل هذا النوع من هذه النفوس يميل تارة للخير، ويجنح تارة للشر. ويتجلى انعكاس هذه الأقسام الثلاثة في

[١٥٤] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٣٥.

www.mtenback.com

الصداقات. فلا غرابة إذًا أن نجد إنسانًا خيرًا مدى حياته مع أصدقائه، على حين نجد إنسانًا آخر شريرًا مدى حياته مع الصداقات التي يقيمها. وإنسانًا ثالثًا يصادق بالوفاء مادامت مصلحته ومنافعه متوفرة لدى صديقه، فإذا عصفت بالصديق عواصف الدهر فافتقر بعد غنى، أو تغير حاله الأول. تغير حال صديقه عليه،وحمد الناس أخلاق الصديق الدائم العهد والوفاء لصديقه. يقول الشاعر:

وَلاخَيْرَ في وُدٍّ إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... عَلَى طُولِ مَرِّ الحادِثاتِ بَقاءُ

ومدح الناس أنفسهم بهذه الصفة وهي دوام الوفاء، واستمرار مودة الأصدقاء في قربهم وفي بعدهم، فهذا الشاعر العربي يطري كرم أخلاقه في هذه الظاهرة، فيقول[١٥٥]:

وَلا بُعْدِي يُغَيِّرُ حالَ وُدِّي ... عَنِ العَهْدِ الكَرِيمِ وَلا اقْترابِي

وَلا عِنْدَ الرَّخاءِ أَخُونُ يَوْمًا ... وَلاَ فِي فاقَةٍ دَنَسَتْ ثِيابِي

وَلا يَعْدُو عَلَيَّ الجَارُ يَشْكُو ... أَذاتِي – ما بَقِيتُ – وَلا اغْتِيابِي

فَإِنِّي لا يَغُولُ النَّأْيُ وُدِّي ... وَلَوْ كُنَّا بِمُنْقَطِعِ التُّرَابِ

وقد ذم الناس الصديق الذي يتغير، ويقلب لصديقه ظهر المجن إذا تنكب له الدهر، فهذا الشاعر يصف صديقه الذي هذه حالته بهذه الأبيات[١٥٦]:

وَأَخٍ كَانَ لِي وَدُودًا مُحِبًّا ... نَاصِحًا وامِقًا رَفِيقًا شَفِيقا

ثُمَّ لَمَّا أَصَابَنِي الدَّهْرُ بِالجَفْ ... وَةِ مِنْهُ صَارَ البَعِيدَ السَّحِيقا

يا صَدِيقي، ما كُنْتَ لِي بِصَدِيقٍ ... إِنَّمَا كُنْتَ لِلزَّمَانِ صَدِيقا

---

[١٥٥] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٧١.

[١٥٦] المصدر نفسه، ٢١٤.

www.mtenback.com

وأكثر الشعراء من الحديث عن الصديق المتبدل على صديقه، وسموه في اللغة: الخَيْدَع والعَزوف، وعرَّفوه بأنه الذي لا يثبت على إخاء، وقالوا هو ذو خبنات وخنبات، وهو الذي يُصلح مرة ويُفسد أخرى. ورجل إمّعة: لا يثبت على إخاء. ويقول لكل أحد أنا معك[١٥٧] وغالبًا ما كان الشاعر يصور صديقه بالمتبدل ويصور نفسه بالباقي على الود والمحبة لكرم أخلاق فيه. قال الشاعر[١٥٨]:

تَبدَّلْتَ بَعْدي، وَالمَلُولُ – إِذَا نَأَتْ ... بِهِ الدَّارُ عَنْ أَحْبَابِهِ – يَتَبَدَّلُ

فَبَانَ القِلى لِي مِنْكَ، وَاتَّضَحَ الخَفَا ... وَلاَحَ لَنَا مِنْهُ الَّذي كَانَ يُشْكِلُ

أَحِينَ أَثَارَتْ لِلمَوَدَّةِ بَيْنَنَا ... رِياضُ يَدٍ أَنْوارُهَا يَتَهَلَّلُ

وَدَامَتْ سَمَاءُ اللَّهْوِ تَنْهَلُ سَحَّةً ... عَلَينا بِأَنْواعِ الوَفَاءِ وَتَهْطِلُ

تَنَكَّبْتَ قَوْسَ اللَّهْوِ، ثُمَّ رَمَيْتَنِي ... وَخَلَّيْتَنِي أَبْكِي الوِصَالَ وَأُعْوِلُ

سَأَحْفَظُ ما ضَيَّعْتَهُ مِنْ مَوَدَّتِي ... لِتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكَ لا أَتَبَدَّلُ

وحفظت لنا كتب الأدب قصصًا – إذا صحت – طريفة تدل على مكارم الأخلاق والإخلاص في الصداقة، لدرجة التفاني فيها، منها أن قبيلة هذيل قتلت رجلاً من بعض العرب، فأسر أهل القتيل رجلين من هذيل متصادقين، فقالوا لهما: أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا؟ فقال كل واحد منهما: أنا ابن فلان الحسيب النسيب، ذي الثأر المقيم، فأقتلوني دون صاحبي، فكلٌّ بذل نفسه للقتل دون صاحبه، فعيوا بأمرهما لما رأوا من تأبّيهما، فقالوا: هذا التصافي لا تصافي المحلب[١٥٩]، وصفحوا عنهما[١٦٠].

---

[١٥٧] ابن سيده، علي بن إسماعيل: المخصص، تحقيق: طه بن محمود، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ٣٢١.

[١٥٨] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٢١٣.

[١٥٩] المحلب: الإناء الذي يحلب فيه.

[١٦٠] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٣٤٥.

www.mtenback.com

وتساءل الناس عن سبب كرم أخلاق الرجل مع صديقه فوجدوه في كرم أصله. وشرف نسبه، وأصالة محتده. وقال الشاعر[١٦١]:

فَلا تَعْتَقِدْ خِلاً يَسُـــرُّكَ بَعْضُـــهُ ... وَإِنْ غَابَ يَوْمًا عَنْكَ سَـــاءَكَ كُلُّـــهُ

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَبْلُو امْرَأً كَيْفَ طَبْعُـــهُ ... فَدَعْهُ وَسَلْ مِن قَبْلِها: كَيْفَ أَصْلُـــهُ؟

فإن كان أصله كريمًا فلا يصدر عنه إلا الفعل الكريم، وإن كان أصلـــه لئيمًـــا فتوقّع تبدل طباعه، وتغير صداقته في المحضر والمغيب.

وقد مدح بعض الشعراء أنفسهم بأنهم لا يتغيرون على أصدقائهم على الرغـــم من بُعد الديار التي كتبها الله لهم. كما قال ابن المنجم لعبيدالله بن عبدالله بن طـــاهر، عندما قال الأخير:

يا مَنْ تَحَـــوَّل عَنَّـــا، وَهُـــوَ يَأْلَفُنـــا ... بَعُـــدْتَ عَنَّـــا، أَبَعْـــدَ الآنَ تَلْقَانَـــا؟

فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مُـــذْ فَـــارَقْتَ جِيرَتَنـــا ... بُدِّلْتَ جَـــارًا، وَمَـــابُدِّلْتَ جِيرَانـــا

فكتب إليه ابن المنجم[١٦٢]:

بَعُدْتُ عَنْكُمْ بِدارِي دُوْنَ خَـــالِصَتِي ... وَمَحْضُ وُدِّي، وَعَهْدِي كَالَّذِي كَانـــا

وَمَا تَبَدَّلْتُ – مُذْ فارَقْتُ قُرْبَكُـــمُ – ... إِلاَّ هُمومًـــا أُعَانِيهَـــا وَأَحْزَانـــا

وَهَـــلْ يُسَـــرّ بِسُـــكْنى دارِهِ أَحَـــدٌ ... وَلَيْـــسَ أَحْبَابُـــهُ لِلـــدَّارِ جِيْرَانَـــا؟

عتاب الصديق:

الحصول على الصديق عملٌ ليس يسيرًا، وإذا قُدِّر للمرء أن يصطفي مما حولـــه صديقًا صدوقًا، فعليه أن يحتفظ به. ويجب أن يسلم المرء بـــأن الحيـــاة الاجتماعيـــة

---

[١٦١] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٣٤٧.

[١٦٢] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ص ٣٢٩.

www.mtenback.com

وظروف العيش، بل حتى الاحتكاك الشديد بين الصديقين، يخلق الملل، ويتنامى هذا فيؤدي إلى الهجر، ويتنامى الهجر فيؤدي إلى القطيعة بين الأصدقاء. كما يؤدي إلى القطيعة اختلاف الرأي، ومع أن الناس يرددون دائمًا المقولة: «اختلاف وجهات النظر لا يفسد للود قضية» إلا أنهم في واقع الحال يخالفون هذه المقولة وتفسد قضية الود بينهم، ولكن العقلاء من الأصدقاء أو بعضهم لا يترك فساد الود يتفاقم حتى يصل إلى النهاية. وإنما على العاقل أن يصلح ما استطاع وأن يعيد بناء جسور الصداقة بينه وبين صديق الأمس الذي كان يأنس إليه، ويركن إلى مجالسته ومطارحته، وليس مثل العتاب «صابونًا» للقلوب، وليكن عتابًا رقيقًا رفيقًا، عليه مسحة التسامح وأمارة الرضا، وفيه نسيان لموجبات دواعي الهجر، ومسببات القطيعة.

تحدث أبوحيان عن أثر العتب في نفوس المتعاتبين، فقال: «وأما العتب فربما أصلح، وردّ الفائت، وشَعَبَ الصدع، ولَمّ الشَعَث، والإكثار منه ربما عرّض بالحقد. وأحدث نوعًا من النبوة، وقد قيل: وما صافيتَ من لم تعاتبه، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ماعهداه في الأول»[١٦٣] وعلى الرغم من فائدة العتاب ، إلا أن كثرته تدل على أن بناء الصداقة نفسها مخلخل، وليس من المتانة التي من شأنها أن تبقيه وتخلده، وكثرة العتاب يُنظَر إليها من جانبين: الصديق المعاتِب، فهو إذا كان كثير العتاب لأصدقائه فإن العيب فيه، تدل كثرة عتابه للناس على أنه يطلب منهم أكثر مما يطلبه الصديق من صديقه، وهذه فيها شعبة من الأنانية تنفّر منه أصدقاءه ، فمن كانت فيه هذه الخَلّة كان عليه أن يعيش وحيدًا دون أن يتقرب من الناس، ثم يلحق بهم الأذى بكثرة تعتّبه عليهم، وهذا ما أشار إليه بشار بن برد عندما قال[١٦٤]:

---

[١٦٣] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١١٢.

[١٦٤] بشار بن برد: ديوانه، تحقيق: ابن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع، ج١، ص٣٢٦ .

www.mtenback.com

إِذَا كُنْتَ فِي كُـلِّ الأُمُـورِ مُعَاتِبًـا ... صَدِيقَكَ، لَمْ تَلْـقَ الَّذِي لا تُعَاتِبُـهْ
فَعِشْ واحِدًا، أو صِلْ أَخَـاكَ فَإِنَّـهُ ... مُقَـارِفُ ذَنْـبٍ مَـرَّةً وَمُجانِبُـه
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا عَلَى القَذَى ... ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَـارِبُه
وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضِى سَجَايَاه كُلُّهَـا؟ ... كَفَى المَـرْءَ نُبْـلاً أَنْ تُعَـدَّ مَعَايِبُـه

ولهذا قيل: كثرة العتابْ، تُذهب الأصحابْ. فصديقك واحد من البشر، يخطىء ويصيب، فتحمل خطأه، وإلا تتحمله انفضّ من حولك الأصدقاء، ووجدت نفسك، في يوم من الأيام، وحيدًا في صحراء العمر، وهجير رحلة الحياة المُمضَّة.

والجانب الثاني، هذا الصديق المعاتَب، فإذا كثر عتابك له، فمعنى ذلك أنه كثير الخطأ، تصلحه بعتابك هذا اليوم، فيعاود الوقوع في الخطأ غدًا، فتصلحه بعتاب جديد، لا يلبث أن يضمحل الصفاء. فهذا نوعٌ من الأصدقاء تهرأت صداقته وبليت مودتـه، فالأولى بك أن تصدَّ عنه كما صدَّ - مرارًا - عنـك، وكن كما قال الشاعر[١٦٥]:

وَكُنْتُ، إِذَا ما صاحِبٌ مَلَّ صُحْبَتِـي ... صَدَدْتُ، وَبَعْضُ الصَّدِّ فِي الحُبِّ أَمْثَلُ
وَقُلْتُ جَمِيلاً، حِينَ أَصْـرِمُ حَبْلَـهُ ... إِذَا كان لَمْ يَأْتِ الَّتِي هِـيَ أَجْمَـلُ

وفي بعض الناس رغبة في أن يكونوا قطب الصداقة ومحورها، ولذلك يصـدون وفي أنفسهم رغبة في الاسترضاء، وأن تقدم لهم بين يدي صداقتك شفيعًا ولا يقبلـون عتابك الصافي لهم إلا مشفوعًا بشفيع، لذا يحملونك على هجرهم بعد أن فقد العتـاب وظيفته كقول الشاعر:

وَحَقِّكَ ما تَرْكِي عِتَابَكَ عَـنْ قِلَـىً ... وَلَكِـنْ لِعِلْمِـيَ أَنَّـهُ غَـيْرُ نَـافِعِ
وَأَنِّي إِذا لَمْ أَصْـبِرِ اليَـوْمَ طَائِعًـا ... فَلا بُدَّ مِنْـهُ مُكْرَهًـا غَـيْرَ طَـائِعِ

[١٦٥] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٤٧.

www.mtenback.com

إذا أَنْتَ لَـمْ تَعْطِفْـكَ إلاَّ شَـفَاعَةٌ فَلا خَيْرَ فِـي وُدٍّ يَكـونُ بِشَـافِعِ

ولذلك أجمع العقلاء على أنه لا جدوى في صديق «لا تزال تعاتبه»، ومن مكارم الأخلاق التي سادت بين العرب أنهم يلتمسون العذر للصديق حتى وإن أخطأ، وقال قائلهم: «التمس لخطأ أخيك سبعين عذرًا قبل أن تعاتبه».

وشر الأصدقاء الذي يتسرع بقطع حبل الود إذا وجده قد بلي، وخيرهم من ينكثه ويجدده، ويسعى في تمتينه، وخاصة الصديق الذي ليس لك من صداقته بدٌّ، ولا عن مودته مذهب، كما قال سعيد بن حميد: قال أعرابي: «كثرة العتاب إلحاف، وتركه استخفاف»[١٦٦].

وهناك فئة من الناس يتضايقون من جفاء أصدقائهم وهجرهم لهم، ولكن ردة فعلهم لا تعدو أن تكون التسليم للقدر على الرغم من وقع المصيبة عليهم، يقول شاعر معاتبًا صديقه على جفائه له[١٦٧]:

أَجَفْوتَنِـي، فِيْمَـنْ جَفَـانِي وَجَعَلْـتَ شَـانَكَ غَـيْرَ شَـانِي

وَهَجَرْتَنِـي، وَقَطَعْتَنِـي وَقَلَيْتَنِـي، فِيْمَـنْ قَلانِـي

أَفَعَلْتَهَـا ؟ فالمُسْـتَعَانُ الـ لَّـهُ أَفْضَـلُ مُسْـتَعَانِ

هنا التسليم لمشيئة القدر ليس عن ضعف في أخلاق الصديق ولكنه شعور منه بأن الحياة قصيرة، والعمر أقصر من أن نكدره بعتاب من نحب، فماذا عسانا أن نصنع بمن نكره إذًا ؟ وهذا ما عبّر عنه الشاعر سعيد بن حميد عندما قال:

أَقْلِـلْ عِتَـابَكَ فَالزَّمَـانُ قَلِيـلُ وَالدَّهْـرُ يَعْـدِلُ مَـرَّةً وَيَمِيـلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْـتُ صُرُوفَـهُ إلا بَكَيْـتُ عَلَيْـهِ حِيْـنَ يَـزُولُ

---

[١٦٦] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١١٨.

[١٦٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢١١ .

www.mtenback.com

التسامح مع الصديق:

إن العلاقة التي تقوم بين صديقين أحدهما كريمٌ والآخر لئيم غالبًا ما تنتهي صداقتهما إلى القطيعة، لأن أحد ركنيها بُني على أسس واهية، أما إذا كان ركناها قد بُنيا على أسس متينة فما أحراها بالاستمرار والخلود، وحتى إذا كان أحد ركنيها كريم الخلق، فإنه يحاول - جاهدًا - استبقاء الصداقة. وأقوى دعائم استبقاء الصداقة التسامح بين الأصدقاء، وغفران زلاتهم. فلهذا قال النابغة:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وقال الآخر:

وَكُنْتُ إِذا الصَّدِيقُ نَبا بِأَمْرِي ... وَأَشْرَقَنِي - عَلَى حَنَقٍ - بِرِيقِي

غَفَرْتُ ذُنوبَهُ، وَكَظَمْتُ غَيْظِي ... مَخَافَةَ أَنْ أَعِيشَ بِلا صَدِيقِ

فهؤلاء الشعراء أوجبوا الإغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة عمود الإخاء، وإنما وقفوا بالصفح والعفو على ما يحلو للإنسان أن يأنس به من مثله، ألا ترى النابغة يقول: أي الرجال المهذب؟ والآخر يقول: مخافة أن أعيش بلا صديق[١٦٨].

وقد أَكْثَرَ الشعراء من الحديث عن العفو عن الصديق طمعًا في استبقاء الصداقة، ونظرًا لمعرفتهم بأخلاق البشر التي لا تخلو من كدر، فقال أحدهم:

إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ فِي الزَّمَانِ مُهَذَّبًا ... فَنِيَ الزَّمَانُ، وَأَنْتَ فِي الطَّلَبَاتِ

خُذْ صَفْوَ أَخْلاقِ الصَّدِيقِ وَأَعْطِهِ ... صَفْوًا، وَدَعْ أَخْلاقَهُ الكَدِرَاتِ

وقال الآخر:

إِذَا ما امْرُؤٌ سَاءَتْكَ مِنْهُ خَلِيقَةٌ ... فَفِي الصَّفْحِ طَيٌّ لِلذُّنُوبِ جَمِيلُ

---

[١٦٨] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٠٢/٤٠٣.

www.mtenback.com

ولهذا بالغ أحدهم عندما قال: إن الخل الوفي ليس له وجود في الدنيا، وهو ثالث الثلاثة المستحيلات: الغول والعنقاء والخل الوفي. ولذلك تحدث الذين كتبوا عن فن الصداقة فقالوا: يجب ألا ننسى أن معاداة الصديق أقرب مأخذًا من مصادقة العدو، وهذا أمر معقول، لأن هدم البناء أسهل من رفعه، وإنفاق المال أهون من كسبه، وكسر الإناء أسهل من إصلاحه[١٦٩].

الصديق بين الوفاء والغدر:

الوفاء والغدر خلقان من أخلاق الإنسان، يوجدان بنسَب مختلفة في النفوس البشرية.

والذين كتبوا في الأخلاق عرّفوا الوفاء بأنه الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويَرْهَنَ به لسانه، والخروج مما يضمنه وإن كان مجحفًا به. فليس يعد وفيًّا من لم تلحقه بوفائه أذيّة وإن قلّت. وكلما أضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان أبلغ في الوفاء [١٧٠].

والأخلاق المحمودة، وإن كانت في بعض الناس غريزة فليست في جميعهم، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدريب والرياضة، ويترقوا إليها بالاعتياد والإلف. ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لايقبل طبعه العادات الحسنة، ولا الخلق الجميل، وقد يكون لرداءة جوهره ، وخُبث عنصره. وأما الغدر فهو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به، وهذا الخلق مستقبح، وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة، والناس مطبوعون على الأخلاق الرديئة منقادون للشهوات الدنيئة، وهذا ما لمحه المتنبي عندما قال:

---

[١٦٩] د. عز الدين فراج: فن الصداقة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص٩٠.

[١٧٠] د. عز الدين فراج: فن الصداقة، ص٩٠.

www.mtenback.com

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ، فَإِنْ تَجِـــدْ ذَا عِفَّـــةٍ فَلِعِلَّـــةٍ لايَظْلِـــمُ

فرأيه أن الإنسان مفطور على الظلم لا على العدل. وهذه مسألة فيهـــا نظـــر، ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة، وعظم الانتفاع بـــالملوك الحَسَنِي السيرة ليردعوا الظالم عن ظلمه، ويمنعوا الغاصب عن غصبه، ويعاقبوا الفـــاجر على فجوره، ويقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره.

وهذه الحال هي أخلاق أكثر الناس، فإن الجهل والشر والخبث والشَرَهَ والحسد غالب عليهم، والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعض، ويحتذي التـــابع أبـــدًا ســـيرة المتبوع، وشعارهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[١٧١]. وإن كان الغالب عليهم الشر والجهل، كان واجبًا أن يقتدي أحداثهم وأولادهم وأتبـــاعهم بهم.

ولما كان الوفاء من القيم الحميدة، فإن الصديق الوفي قمين أن يتمدح بوفائـــه، ودوام مودته إن كان الصديق حاضرًا أم غائبًا. لهذا قال الشاعر[١٧٢]:

فَإِنْ يَكُ عَنْ لِقائِكَ غـــابَ وَجْهِـــي فَلَـــمْ تَغِـــبِ المَـــوَدَّةُ والإِخَـــاءُ
وَلَمْ يَغِبِ الثَّنَاءُ عَلَيْـــكَ منِّـــي بِظَهْـــرِ الغَيْـــبِ يَتْبَعُـــهُ الدُّعَـــاءُ
وَمَازَالَتْ تَتُـــوقُ إِلَيْـــكَ نَفْســـي عَلَـــى الحَـــالاتِ يَحْدُوهـــا الوَفَـــاءُ

ومن صور الوفاء للصداقة ما ذُكر من أنه كان بين حاتم طيّئ وأوس بن حارثة، ألطف ما كان بين اثنين، فقال النعمان لجلسائه: لأفسدنَّ ما بينهما، فدخل علـــى أوس فقال: إن حاتمًا يزعم أنه أفضل منك. فقال: أبيت اللعن صدق. ولو كنتُ أنا وأهلـــي وولدي لحاتم لوهبنا في يوم واحد. وخرج فدخل على حاتم فقال له مثل ذلك. فقـــال:

---

[١٧١] سورة الزخرف: ٢٣.

[١٧٢] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٩٦/٢٩٧ .

www.mtenback.com

صدق، وأين أقع من أوس وله عشرة ذكور أدْوَنُهُم أفضل مني. فقال النعمان: ما رأيت أفضل منكما[١٧٣].

إنّ أخطر مافي الصداقة، بكل أشكالها وأنواعها، على أطراف المتصادقين، وعلى المجتمع، صديق السوء.

وصداقة السوء قد تنشأ، في الأغلب، عرضية، وقد تكون متعمدة. وقد يكون أحد طرفيها إنسانًا طيبًا بريئًا ساذجًا، ولكن الطرف الآخر ينطوي على الخبث والنوازع الشريرة، وكثيرًا ما تنشأ صداقة السوء بين صديقين أحدهما حَدَث غر، ليس لديه خبرة من تجارب الحياة، ولا معرفة بأبعادها، ويكون الطرف الثاني قد ابتلي بنوعٍ من أنواع الرذائل النفسية أو الاجتماعية، فيبحث بغريزته عن صديق نديم ينادمه على هواياته الرذيلة. لأن المنادمة على هذه الهوايات تزيد في متعتها، وهذا ما نشاهده عند الأحداث الذين يسقطون في حمأة الرذائل كالتدخين وتعود المشروبات الروحية، وتعاطي المخدرات، والجلوس على موائد القمار، والمغامرات الغرامية، وما أشبه ذلك.

صحيح أن الأحداث والمراهقين هم أكثر ضحايا صداقة السوء، ولكن هذا الضرب من الصداقة قد يتعدى المراهقين والأحداث، فيسقط في حمأتها أناس في سن النضج ومرحلة الاكتمال، سواءٌ من الرجال أو النساء.

ومما يسهل نشوب صداقة السوء على الأحداث غياب رقابة الأسرة أو بُعد كل من الأب والأم عن التّماسّ بالأولاد وتوجيههم وتربيتهم التربية الصحيحة.

ولقد تزايدت احتمالات قيام صداقة السوء في هذا الزمان بفعل وسائل الإعلام المعاصرة، وخاصة الوسائل المرئية كالتلفزة والمحطات الفضائية التي تجمع الأصدقاء الأحداث وغيرهم على متابعة الأفلام والمسلسلات الهابطة أخلاقيًا، ومشاهدة أفلام

---

[١٧٣] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص ٢٤٢.

www.mtenback.com

الجنس والدعايات التي تلعب فيها المرأة العارية أو شبه العارية، دوراً كبيراً يغذي غرائز المشاهدين ويحفز شهواتهم، أو يجعلهم يألفون المشاهد الوضيعة فتتروّض نفوسهم على رؤية المشاهد التي يستحيي من رؤيتها ذوو المروءة وأصحاب الأخلاق الكريمة.

واختيار الصديق عملية ليست يسيرة، وخاصة عند الفتى أو الفتاة اللذين لا يملكان الوعي الكامل، والعقل الرصين الذي يستشف أبعاد الصداقة وما تتكشف عنه في قادمات الأيام، وخاصة أن الشاب أو الشابة ليس لديه من عمق التجربة ما يجعله قادراً على اكتشاف طبيعة الصديق ونواياه وأهدافه.

ويتسلل صديق السوء إلى الإنسان الطيب القلب، البريء النفس، إذا لم يكن حذراً فطناً وقد يوجد ضعيف الشخصية الذي لا يستطيع مقاومة الصداقة العابثة القادمة عليه فيضطر أول الأمر إلى المجاملة، فإذا استمرت المجاملة وعدم المقاومة ردحاً من الزمان وجد الصديق الطيب نفسه قد انزلق إلى مجاراة صديقه، وشاركه في أعماله وسلوكه. والحكمة تقضي أن على الصديق الطيب أن يحتث جذور صداقة الصديق السيء بمجرد أن تلوح له في الأفق بوادر ما تُخشى عقباه، ولذلك قال الشاعر[١٧٤]:

تَجَنَّبْ صَدِيقَ السُّوءِ، واصْرِمْ حِبَالَهُ ... فَإِنْ لَم تَجِدْ مِنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ

وَأَحْبِبْ صَدِيقَ الخَيْرِ، وَاحْذَرْ مِراءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وَصادِقْ - إذا صَادَقْتَ - حُرًّا أَوِ امرأً ... كَرِيمًا مِنَ الفِتْيَانِ يَرْعَى لِجَارِهِ

ومن علامات صديق السوء أنه يجاملك في حضوره معك، فإذا غاب عنك اغتابك ورتع في عرضك. وقد وصفه شاعر فقال[١٧٥]:

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشُرُ لِي ... حِينَ يَلْقَانِي، وَإِنْ غِبْتُ شَتَمْ

---

[١٧٤] صالح بن جناح: رسائل البلغاء، كتاب الأدب والمروءة، ٣٩٣، وقد يكون الشعر للمؤلف.

[١٧٥] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٣٥٦ .

www.mtenback.com

وَكَـلامٌ سَـيِّءٌ قَـدْ وَقَـرَتْ عَنْهُ أُذُنَـايَ، وَمَـابِي مِـنْ صَمَـمْ
لا تَرَانِي راتعًـا- فِـي مَجْلِـسٍ - فِي لُحومِ النَّاسِ كالسَّـبْعِ الضَّـرِمْ

وهذه صفات الصديق الشرير الذي لا دين له ولا مروءة. وهـذا الصنـف في المجتمع المعاصر والقديم كثير. وعلماء النفس لمحوا خطر مصادقة صديق السوء فقـالوا: مصادقة الأشرار تورث الظن بالخيار.

الصديق والقريب:

يرتبط الإنسان منذ أن يدرج على سطح الأرض بمجموعة من روابـط القرابة، وتتفرع شجرة القرابة وتمتد أغصانهـا ذات اليمـين وذات الشـمال، وتتكون القرابة عن طريق النساء أيضًا فيتكون الأصهار والأنساب وأولادهـم وأحفادهم.

وتقضي التقاليد و العادات الشرقية، وقبلها التعاليم الدينيـة باحـترام هـؤلاء الأقارب والعطف عليهم، وإيثارهم بالخير على غيرهم من المعارف والناس الأبعدين .

وتعاليم الدين وتقاليد المجتمع التي منحت هؤلاء الأقارب شيئًا من الحـق علـى ذويهم جعلتهم يبالغون في هذا الحق الذي يتضاءل كلما تضاءلت القرابة وبعدت. فـإذا نال الشخص خيرًا فربما تقاطر إليه بعض الأقارب حاملين وده، طالبين أن ينالهم شـيء مما ناله، معرّضين بقرابتهم تارة وملحين بطلب حقهم المتصور تارة أخرى، وهذا ممـا يجعلهم بتلك المنزلة التي يتوهمونها .

وهؤلاء الأقارب منهم القوي والضعيف، والغني والفقير، والجـاهل والعـالم، وخفيف الظل وثقيله. ولذلك لايستطيع قريبهم أن يتسع صدره لاحتضانهم جميعـًا، على تفاوت طباعهم ومشاربهم، ولذلك ينصرف عن صداقتهم إلى مصادقة الأبعدين، وهذه الصداقة تحرك الغيرة في نفوسهم. فيقفون منه مواقف مختلفة، أكثرهـا عدائـي،

www.mtenback.com

فتظهر في عداوة مبطنة، أو حسد على ما أوتي قريبهم من فضل الله. فلهذا قلما ترى الأقارب متصادقين، وغالبًا ما يختار الصديق أصدقاءه من خارج حظيرة الأقارب. فإذا رزق الصديق المخلص، والأليف الودود آثره على كل قريب ونسيب. وقصة ذلك الأعرابي تؤيد ما ذهبنا إليه، قال أبو حامد العلوي: «رمى أعرابي من بني هلال عن حيّه إلى أطراف الشام. فقيل له: من خلفت وراءك؟ قال: خلفت والدًا ووالدةً وأختًا وابن عم وبنت عم وعشيقةً وصديقًا. قيل له: وكيف حنينك إليهم ؟ قال: أشد حنين. قيل: فصفه لنا، قال: أما حنيني إلى والدي فللتعزز به، فإن الوالد عضد وركن يعاذ به، ويؤوى إليه، وأما نزاعي إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها، ولدعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله.

وأما شوقي إلى الأخت فللصيانة لها وللتروح إليها.

وأما شوقي إلى ابن العم فللمكاتفة له، والانتصار به.

وأما ابنة العم فلأنها لحم على وضم، أتمنى أن أشبل عليها بالرقة، أو أصلها ببعض من يكون لها كفؤًا، ويكون لنا أيضًا إلفًا. أما صبابتي بالعشيقة فذاك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض، وأما الصديق فوجدي به فوق شوقي إذا نعتّه لك، لأني أباثه بما أجل أبي عنه وأجبأ من أمي فيه، وأطويه عن أختي خجلاً منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفًا من حسد يفقأ ما بيني وبينه، وأكني عن بنت عمي بغيرها، لأنها شقيقة ابن العم، ومعها نصف ما معه، وهي من الشجرة التي تلفنا أغصانها وتلتقي علينا أفنانها، ويجمعنا ظلها.

فأما العشيقة فقصاراى معها أن أشوب لها صدقًا بكذب وغلظة بلين، لأفوز منها بحظ من نظر. ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني، وانتسابهم إليّ، دون الصديق الذي حريمي له مباح. وسارحي عنده

www.mtenback.com

مراح، أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد فاتنتي عنده إذا دنـــوت، إذا عززت لـــه ذلّ لي، وإذا ذللت له عزّ بي، إذا تلاحظنا تصافينا كأس المودة، وإذا تصامتنا تناجينا لسان الثقة، لا يتوارى عني إلا حافظًا للغيب ولا يتراءى لي إلا ساترًا للعيب.

قيل له: فهل نمى إليك خبره، منذ بان عنك أثره ؟ قال: نعم لحقني بعض فتيـــان الحي أمس، فسألته عن قرابتي وعشيرتي، فنعت لي كـــلاً، وأطـــــاب أخبارهـــــم، حتى إذا سألته عن الصديق، قال: ماله هجّيرى سواك، إن عبّر فباسمك يســـتقل، وإن تنفس فبذكرك يقطع، إذا أوى إلى ندوة الحي فبلسانك ينشر، وجودك يذكر. لا يمـــر بمعهد لك إلا حياه ولا بمكان حله معك إلا تبـــوّأه.

فقلت له: كفّ قليلاً، فقد أججت في صدري نارًا كانت طافئة، وأبديت مـــني صبابة كانت خافية، وما أراني متمتعًا بالعيش دون أن أشخص إليه، غير مبال بهـــذه المبرة والغيرة التي خرجت من جراهما.

قال أبو حامد: فضرب والله كبد راحلته إلى حيّه، وترك ما كان فيه[١٧٦].

فانظر كيف فاضل هذا الأعرابي، بمشاعره الفطرية العفوية، بـــين ذوي قربـــاه وصديقه، وفضل الصديق على القريب، وليست مفاضلة سطحية، وإنما نلمـــس فيهـــا عميق التفكير، وعفويّ التفسير. واصفًا بذلك مشاعره ومشاعر صديقه، وقد أطنـــب وصف مشاعرهما وأوجز في نعت مشاعره ذوي قرباه، لأنه - وبحكم الغربة والابتعـــاد وشدة الشوق وإثارة الحنين واجدٌ في مشاعرهما مادة غزيرة ليست متوفرة في مشـــاعره عند نعته لذوي قرباه.

ومثل هذه المشاعر نجدها عند شاعر آخر، يفضل صديقه على ألفين من أقاربـــه قال عن صديقه[١٧٧]:

---

[١٧٦] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ١٧١-١٧٢-١٧٣.

[١٧٧] أبو حيان التوحيدي: الصداقة والصديق، ٢٠٥-٢٠٦.

www.mtenback.com

أَخو ثِقَــةٍ يُسَــرُّ بِحُسْــنِ حَــالِي وَإِنْ لَــمْ يُدْنِــهِ مِنِّــي قَرابَــهْ
يُسَــرُّ بِمَــا أُسَــرُّ بِــهِ، وَيُشْــجِي إِذَا مَــا أَزْمَــةٌ نَزَلَــتْ رِحَابَــهْ
أَحَــبُّ إِلَيَّ مِــنْ أَلْفِــي قَرِيــبٍ بَنَــانُ صُدُوْرِهِــمْ لِــي مُسْــتَرَابَهْ

وللحكماء أقوال كثيرة في هذا المجال، خلاصتها أنهم يفضلون الصديق على القريب، ويفضلون القريب إذا كان صديقًا،كما قيل لابن المقفع أصديقك أحب إليك أم نسيبك ؟

فقال: إنما أحب النسيب إذا كان صديقًا. وقال: الأخ نسيب الجسم. والصديق نسيب الروح. وقال بعضهم: الصديق الموفق خير من الشقيق المنافق. وقال بشار[١٧٨]:

يَخُونُكَ ذُو القُرْبَى مِــرَارًا، وَرُبَّمَــا وَفِي لَكَ،عِنْدَ الجَهْلِ، مَنْ لاَ تُقَارِبُــهْ

إنَّ الصداقة الحقيقية كنزٌ ينبغي صونه والحفاظ عليه، ولقد أدرك الناس من قديم، بفطرهم الطبيعية، أهمية الصديق في الحياة، فرسموا صورته المثالية ونشدوه من بين الناس وسعوا للوصول إليه. وما أشدّ حاجة مجتمعاتنا لأن تتآزر دائمًا بعلائق الصداقة الطاهرة النظيفة، التي تسودها معاني الأخوة والتضحية، وتؤنس الإنسان بأخيه الإنسان. فتدوم الحياة السعيدة التي مدارها الحب والإخلاص وحسن التعامل مع الناس حتى يكونوا أصدقاء متحابين.

[١٧٨] الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ص٢٤٠.

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مصطفى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ... الآية﴾	٢٥٤	٢٤
آل عمران	﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... الآية﴾	١٠٣	١٨
	﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً... الآية﴾	١٠٣	١٢
النساء	﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ... الآية﴾	١٩	٣٦
	﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى... الآية﴾	٣٦	٣٢
	﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا... الآية﴾	٣٨	٤١
	﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ... الآية﴾	٦٩	٣٨
المائدة	﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ... الآية﴾	٨٢	٢٧
الأنفال	﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ... الآية﴾	٦٣	١٣
التوبة	﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ.. الآية﴾	٦٠	١٣
إبراهيم	﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ... الآية﴾	٣١	٢٥
الحج	﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى.. الآية﴾	١٣	٣٦
النور	﴿أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ.... الآية﴾	٦١	١٢
الفرقان	﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً... الآية﴾	٢٨، ٢٩	١٣
الشعراء	﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ... الآية﴾	١٠٠-١٠١	١٢
الروم	﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً... الآية﴾	٢١	٢٧
فصلت	﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ... الآية﴾	٢٥	١٤، ٤١
الزخرف	﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى.... الآية﴾	٢٣	٨٤
	﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ... الآية﴾	٣٦	١٤
	﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ.... الآية﴾	٦٧	١٣، ٢٥
الحجرات	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ... الآية﴾	١٠	١٨
القلم	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ... الآية﴾	٤	١٤

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«أحبب حبيبك هوناً ما...»	١٧
«الأرواح جنود مجندة...»	١٥
«... من أحق بحسن صحابتي ؟ قال: أمك...»	٣٢
«إن الله يحب حفظ الود القديم...»	١٦
«إن من أبر البر صلة الرجل...»	١٦
«خيركم خيركم لأهله...»	١٦
«زر غباً تزدد حباً...»	١٧
«اللهم الرفيق الأعلى...»	٣٨
«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه...»	١٥
«للمسلم على المسلم ست خصال...»	٢٣
«ليس بمؤمن من شبع وجاره...»	١٧
«ما تحابّ اثنان في الله إلا كان...»	١٥
«المؤمن مألفة...»	٦٩
«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص...»	١٦
«المؤمن مألوف، ولا خير...»	١٦
«المتحابون بجلال الله في ظل عرش الله...»	١٥
«مثل المؤمنين في توادهم...»	١٦
«المرء على دين خليله...»	١٧
«المرء كثيرٌ بأخيه...»	١٥
«المرء على دين خليله فلينظر امرؤ من يخالل»	٣٥
«من عاد مريضاً أو زار أخاً...»	١٥
«يا عائشة، هذه كانت تغشانا أيام...»	١٥

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ ا ـــ		
أخي	نعماه	–	٤	٢١
ألا إنّ	أبى	ابن بسام	١	٥٨
فلا تصحب	إياه	–	٣	٣٤
		ـــ ء ـــ		
فإن يك	الإخاءُ	–	٣	٨٤
إذا قلّ	سماؤهُ	–	١	٦٠
إذا أردت	بارتقاءِ	–	١	٢٣
إذا ما	إخاءِ	–	٢	٦٧
		ـــ ب ـــ		
ولست	المهذبُ	النابغة	١	٨٢
يافتىً	تطيبُ	ابن عروس	٥	٧٤
أتطلب	عيوب	–	١	٣٤
أعزٌّ	كتابُ	ـــ	١	٧٢
لقد	مرغبُ	سعيد بن حميد	٧	٣٠
وما أنا	أحربُ	–	٣	٣٠
إذا كنت	تعاتبُهْ	بشار بن برد	٤	٨٠
يخونك	تقاربُهْ	بشار بن برد	١	٩٠
وأفضل	يقاربُه	–	٢	٦٨
أخٌ	خطوبُها	–	٢	٧٥
إذا افتقرت	اقتربا	–	٤	٦٢

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
أخو ثقة	قرابَهْ	–	٣	٩٠
إذا كثرت	اجتنابِ	سعيد بن حميد	٥	٢٦
عدوك	الصحابِ	ابن الرومي	٣	٥٧
لا تحمدن	الغضب	–	١	٥٨
أقلل	بعتابِ	–	١	٢٩
ولا بعدي	اقترابي	–	٤	٧٦
وإذا	سبابه	ابن المقفع	٢	٥٦
وقد يصلح	الأدبْ	–	١	٦٧
لا تحمدنّ	الغضبِ	–	١	٣٥
ـــ ت ـــ				
إن كنت	الطلباتِ	–	٢	٨٢
أحب	عثراتي	الإمام الشافعي	٤	١٩
ـــ ج ـــ				
ورُبّ	أبلجا	عبد الله الجعفري	٢	١٨
ـــ ح ـــ				
ما عاتب	الصالحُ	–	١	٣٩
أخاك	سلاحِ	–	٢	١٨
ـــ د ـــ				
وصلتك	الحقدا	الخوارزمي	٢	٢٣
وحدة	عنده	–	٢	٣٩
عن المرء	مقتدِ	عدي بن زيد	١	٤٢
ما ودّني	الأبدِ	–	٣	٢٩

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
ولّما رأيتك	بالعابدِ	–	٦	٧٤
غلط	تردْه	–	٥	٢٢
ولا يصحب	بلَد	–	١	٣٤
		ـــ ر ـــ		
وأكثر	ظهورُ	الإمام الشافعي	٢	٦٩
أكرم	السفرُ	–	١	٣٨
إذا ما	عذْرا	–	١	٣٣
كم من	يسرِ	رجل من بني تميم	٤	٦١
ومن الناس	بالتكديرِ	–	٢	٦٣
ومن شيمتي	الغدرِ	–	٢	٧٤
تجنب	فدارِه	–	٣	٨٦
من الناس	ضرر	ابن المقفع	٢	٥٦
		ـــ س ـــ		
يخرج	أنيسُه	–	١	٤٠
كن	أُنسا	–	٣	٧١
ما تطعمتُ	جليسا	أبو الحسن الجرجاني	٣	٧٢
		ـــ ض ـــ		
لست	عِرْضا	الإمام الشافعي	٢	٢٠
		ـــ ع ـــ		
عجبت	الأصابعُ	–	١	٦٣
لا يعجبنك	طباعُهْ	ابن قيس الرقيات	٤	٣٤
إني إذا	قطعا	–	٢	٢٧

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
وحقك	نافعِ	–	٣	٨٠
ـــ ف ـــ				
إذا المرء	التأسّفا	الإمام الشافعي	٤	٢٠
ـــ ق ـــ				
فلا خير	توافقُهْ	–	١	٣٥
صديقك	صديقِ	–	١	٦١
عدوّك	الأخرقِ	صالح بن عبد القدوس	٢	٦٦
وكلٌّ	الصديقِ	–	١	٦٤
إذا اتسع	مضيقِ	–	٥	٧٠
كم صديق	العتيقِ	–	٢	٣٨
إني	بالمذاقِ	–	٣	٢١
تموت	بقي	–	١	٦٠
وكنتُ	بريقي	–	٢	٨٢
إذا نلت	الوميق	–	٢	٦٤
وأخٍ	شفيقا	–	٣	٧٦
ـــ ك ـــ				
ثلاث	فيكا	–	٥	٢٤
ـــ ل ـــ				
فيا حسرتي	يقولُ	أبو فراس الحمداني	٢	٢٦
تبدلتَ	يتبدلُ	–	٦	٧٧
وكنت	أمثلُ	–	٢	٨٠
أتعجب	منتقلُ	–	٢	٧٣

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
أقلل	يميلُ	سعيد بن حميد	٢	٨١
إذا كثر	الخليل	–	١	٧٣
ولاحٍ	الجاهلُ	ابن الظافر	٦	٧٢
إذا ما	جميلُ	–	١	٨٢
إذا رأيت	دغلُ	منصور	٢	٦٢
فلا تعتقد	كلـــهُ	–	٢	٧٨
قد تخللتَ	خليلا	–	١	٢٥
عاشر	وصلا	–	٢	٢٢
وما بقيت	العقولِ	–	٢	٦٦
عاشر	الفضولِ	عمر الخيام	٢	٦٦
لا أسمع	كليلْ	–	٢	٤٠
أشكو	بالملولْ	–	٣	٢٦
	ـــ م ـــ			
والظلم	يظلمُ	المتنبي	١	٨٤
تنزّه	الكرامِ	علي بن أبي طالب	١	٤١
وإذا	كرمْ	–	٢	٣٣
إن شرّ	شتمْ	–	٣	٨٦
	ـــ ن ـــ			
ستور	الأعينُ	إسحق	١	٥٨
وعاشر	أحسنُ	الإمام الشافعي	٢	٣٧
هي	دينُها	عبد الصمد بن المعذّل	٣	٤٢
خليلان	السمَنْ	أبو الخطاب الصابي	١	٢٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
تبدي	كانا	–	٤	٢٩
يا منَ	تلقانا	عبيد الله بن عبد الله	٢	٧٨
بعدتُ	كانا	ابن المنجم	٣	٧٨
إن الكرام	الخشنِ	أبو تمام	١	٢٣
سأصبر	الهوانِ	–	١	٣٨
ربما	الميزانِ	بشار بن برد	١	٤٠
إني أريدك	للدينِ	–	١	٢٥
أجفوتني	شانيِ	–	٣	٨١
فإما أن	سميني	المثقب العبدي	٢	٢١
ـــ هـــ ـــ				
وإني	عليهِ	أبو العتاهية	٢	٣٣
فطوبى	كافِيَه	–	٣	٧٣
احذر	بالحلاوه	–	٢	٣١

موقع المكتبة من تراث ابن تيمية
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثل	الصفحة
«قل لي منَ تعاشر أقل لك من أنت»	٣٦
«من يعاشر الذئاب يتعلم العواء»	٣٦

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم وتفاسيره.

الحديث النبوي في الصحاح والمسانيد.

إبراهيم، زكريا:

مشكلة الحب، دار مصر للطباعة، القاهرة. د.ت.

الأبشيهي، محمد بن أحمد:

المستطرف من كل فن مستظرف، دار مكتبة الحياة، المكتب العالمي للبحوث، بيروت، ١٩٨٧م.

أرسطو:

كتاب الأخلاق، ترجمة إسحق بن حُنين، حققه وشرحه وقدّم له: د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٩م.

الأصبهاني، الراغب:

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء، هذبه واختصره: إبراهيم زيدان، دار الآثار، بيروت، د.ت.

الأهواني، د. أحمد فؤاد الأهواني:

أسرار النفس، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥١م.

الباني، محمد بشير:

البناء الأخلاقي، مطبعة العلم، دمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

البستي، محمد بن حبّان:

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق وتصحيح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، القاهرة، ١٩٧٥م.

www.mtenback.com

البيجاني، محمد بن سالم:

إصلاح المجتمع، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت، ط٢، د.ت.

البيهقي، أحمد بن الحسين البيهقي:

الآداب، حققه وخرّج أحاديثه وعلق عليه: عبد القدوس بن محمد نذير، مكتبة الرياض الحديثة، ط١، ١٩٨٦م.

التنوخي، المحسن بن أبي القاسم:

الفرج بعد الشدّة، تحقيق: عبود الشالجمي، مكتبة الخانجي بمصر، مكتبة المتنبي، بغداد، ١٩٧٨م.

التوحيدي، أبوحيّان:

الصداقة والصديق، شرح وتعليق: علي متولي صلاح، عالم الفكر بمصر، د.ت.

الثعالبي، عبد الملك بن محمد:

اللطائف والظرائف، دار المناهل بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

ثعلب، أبو العباس، أحمد بن يحيى:

مجالس ثعلب، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.

الجاحظ:

المحاسن والأضداد، قدّم له وبوّبه وشرحه: الدكتور علي بو ملحم، ط٢، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩١م.

جعفر، قدامة:

جواهر الألفاظ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

www.mtenback.com

حبنكة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني:

الأخلاق الاسلامية، دار القلم، دمشق وبيروت، ١٣٩٨هـ/٩٧٨م.

ابن حجر، أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي:

الإثافة فيما جاء في الصدقة والضيافة، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، بولاق، القاهرة، ١٩٨٧م.

حجر:

صرخة الحق في الإرشاد والوعظ، للطاهر الطيب حجر، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

حجه، أبو بكر بن حجه الحموي:

ثمرات الأوراق، صححه وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٧١م.

ابن حزم:

الأخلاق والسير: ترجمه إلى الفرنسية السيدة: ندى توميش، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، ١٩٦١م.

الحسني، عبد الحي فخر الدين الحسني:

تهذيب الأخلاق، تقديم: أبو الحسن علي بن الحسن الندوي، ط٢، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٧٨م.

ابن حمدون، محمد بن الحسن بن علي:

التذكرة الحمدونية، تحقيق: الدكتور إحسان عباس وبكر عباس دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

الخولي، محمد عبد العزيز الخولي:

الأدب النبوي، المكتبة التجارية، القاهرة، ط٢، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

www.mtenback.com

الدجوي، أحمد سعيد الدجوي:

فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، تحقيق: عبد الرحيم مارديني، دمشق، دار المحبة، ١٩٩١م.

الزبيدي، محمد مرتضى الزبيدي:

تاج العروس، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، المطابع الأهلية، ١٤٠٧هـ.

الزمخشري، محمد الزمخشري:

أساس البلاغة، دار بيروت للطباعة و النشر، ١٤٠٤هـ.

السلمي، أبو عبد الرحمن:

تحقيق وتعليق: يوسف علي بدوي، آداب الصحبة، دار مكتبة التربية، بيروت لبنان، د.ت.

ابن سيده:

المخصص، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، مأخوذ عن طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٢١هـ.

السيوطي، عبد الرحمن:

الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب، اختصره من كتاب «شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل» لعلي بن ظافر الأزدي، صححه وعلق عليه: أحمد عبيد، المكتبة العربية في دمشق، ١٣٦٨هـ.

الشاروني، يوسف:

الحب والصداقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.

شيخو: الأب لويس شيخو اليسوعي:

مجاني الأدب في حدائق العرب، المطبعة الكاثوليكية في بيروت، ١٩٥٤ - ١٩٥٧م.

www.mtenback.com

الصعيدي، عبد الفتاح الصعيدي وحسن يوسف موسى:

الإفصاح في فقه اللغة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩م.

العاملي، بهاء الدين:

الكشكول، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٦١م.

ابن عبد ربه، محمد:

العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.

أبو العتاهية:

ديوان أبو العتاهية، شرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

العسكري، أبو هلال:

الفروق في اللغة، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.

الغزالي، أبو حامد، محمد الغزالي:

آداب الصحبة والمعاشرة والألفة والأخوة مع أصناف الخلق، من كتاب إحياء علوم الدين، دراسة وتحقيق: محمد سعود المعيني، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٤م

الغزي، بدر الدين محمد الغزي:

آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة،علق عليه وخرّج أحاديثه: مشهور حسن محمود سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٠م.

فرّاج، عزالدين:

فن الصداقة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

www.mtenback.com

أبو فراس الحمداني:

ديوانه، شرح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)،

القاسمي، جمال الدين:

جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب، المطبعة العربية، بمصر، ط٢، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

القالي، إسماعيل بن القاسم:

الأمالي، جزءان ويليه ذيل الأمالي والنوادر للمؤلف، والتنبيه لأبي عبيد البكري، ط٢، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م.

ابن قتيبة:

عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٣٠م.

كارنيجي، ذايل:

كيف تكسب الأصدقاء.

كردعلي، محمد:

رسائل البلغاء، اختيار وتصنيف محمد كردعلي، ط٤، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٤، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

الكويتي، أحمد:

الصداقة والصديق، مكتبة الرشد، الرياض ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

محمد، الدكتور فائز يوسف:

قاموس الطلاب في الحكم والأمثال، أكاديميا انترناشيونال، بيروت، ١٩٩٤م.

www.mtenback.com

ابن مسكويه:

تهذيب الأخلاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م.

ابن منظور:

لسان العرب، دار صادر بيروت، د.ت.

مننجر وليم:

الصداقة والاحتفاظ بالأصدقاء، ترجمة الأستاذ: سامي ناشد، إشراف وتقديم ومراجعة: د. عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.

الهمذاني، عبد الرحمن بن عيسى:

الألفاظ الكتابية، دار الهدى، توزيع المكتب الإسلامي، ١٩٧٩م.

الوطواط، جمال الدين:

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ.

ابن الونان، أحمد بن محمد الجكني:

قطوف الريحان من زهر الأفنان شرح حديقة ابن الونان، دار روضة الصغير للنشر، الرياض، ١٩٩٣م.

موقع الكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com